بسم الله الرحمن الرحيم

هلال الأمم

الأستاذ الدكتور محمد عمر الحاجي

دار المكتبي

الطبعة الأولى
1431هـ - 2010 م

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب 31426 هاتف 2248433 فاكس 2248432
e-mail: almaktabi@mail.sy

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تمهيد

الحمد لله الوهَّاب الكريم ، يختص من يشاء من عباده بفضله العظيم ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد المنعوت بأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم ، ورضي الله عن آله وصحبه أولي السيادة والتكريم. وبعد:

عندما هزم الله المشركين في معركة بدر ، وأذلَّ كبرياءهم ، تنزّلت آيات كريمات تكشف أسرار الهزيمة التي أصابتهم ، وتصف اللطمات التي تناولت الهالكين من كل جهة ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠].

لكن لِمَ هٰذه النهاية الفاجعة؟ ولماذا هٰذا الخزي المحيط؟..

يأتي الجواب الواضح: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال: ٥١].

هٰذه النتيجة جزاء عادل لأناس كرهوا ما أنزل الله ، واتبعوا شياطين الإنس والجن ، واستحلّوا حرمات الضعفاء ، واختالوا علىٰ الناس بقوَّتهم وعلمهم ومالهم و...! يا ترى ، هل تختصُّ هٰذه المسألة بمشركي مكة؟.

أبداً ، فالمنهزمون في بدر ليسوا بِدْعاً من الناس ، ولذلك بيّن القرآن الكريم أن ذلك دأبُ الله في جماهير الظلمة والكفرة ، مع اختلاف الزمان والمكان ، وسنّة الله في العصاة لا تتخلّف ؛ لأن شؤم معاصيهم لاحقٌ بهم وإن طال المدى : ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٥٢ ـ ٥٣].

فالتعليل فيه تدبّر واعتبار : ﴿ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ ﴾ ، ذلك لأن الله سبحانه لا يبدّل أمن الأمم قلقاً ، ولا رخاءها شدّة ، ولا عافيتها سقماً ؛ لأن الله يحبّ أن يرمي الناس في الآلام والضائقات!! . . أبداً ، فهو أرحم الراحمين ؛ يعطي عباده من النعم الشيء الكثير ، ويصبّحهم ويُمسّيهم برزقه ومدده .

لكن الناس يُحسنون الأخذ ولا يُحسنون الشكر ، ويمرحون ويسكرون بنعمه ولا يقدّرون المعطي المنعم سبحانه! .

وعندما يبلغ هٰذا الجحود مداه ، وعندما ينعقد الإصرار عليه ، فلا ينحل بندم ولا توبة . . عندئذٍ تدقُّ قوارع الغضب أبواب الأمم . . وتُسوّد الوجوه بهزائم الدنيا قبل نكال الآخرة . . صحيح أن الله لا يتغير ولكن الناس هم الذين يتغيّرون ، وسننه لا تتغير ولكن الناس هم الذين يبطرون : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١].

صحيح أن الآيات نزلت في أهل مكة ، حيث امتنّ الله عليهم بأمرين جليلين ؛ هما الغاية القصوىٰ للحياة علىٰ ظهر الأرض :

١ ـ **الشّبع** : وهو ملاك الحريات الاقتصادية والعدل الاجتماعي .

٢ ـ **الأمن** : وهو ملاك الحريات السياسية والعدل السياسي .

وهٰذان الأمران هما اللذان تهفو إليهما الأمم، وتسعد في ظلالهما الشعوب، ولذلك إذا ظفرت بهما أمة، فيجب علىٰ أفرادها أن يسارعوا إلىٰ طاعة الله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ﴾ [قريش: ٣ ـ ٤].

وإن لم يفعلوا: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

(الجوع والخوف) بدل (الشبع والأمان)، وهٰذه المسألة لا تختصّ أهل مكة فقط، بل هي سنّة من سنن الله لا تتبدل ولا تتغيّر: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥٣].

هٰذا قانون مصارع الأمم، وهٰذه سنّة الله في التغيير، وهٰذا هو محور الكتاب:

١ ـ ما قبل الإهلاك: إنذارات الله.

٢ ـ أسباب الإهلاك.

٣ ـ ما أكثر العِبَر.. وما أقلّ المعتبرين!!.

ويعلم الله أن هٰذا العمل ليس إلاّ وقفات مع كتاب الله.. ومع كون الله.. فإن وُفّقت في تقديم شيء مفيد، فذاك من فضل الله وكرمه، وإلا فمن النفس الأمارة بالسوء، لكن يشفع لي أن الهدف هو ما قاله خطيب الأنبياء شعيب عليه السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

والحمد لله رب العالمين

* * *

الباب الأول

مَا قَبْلَ الإِهْلاكِ

الفصل الأول: الإنذار قبل الإهلاك.
الفصل الثاني: الإهلاك تدخّل إلٰهيّ.

* * *

الفصل الأول

الإنذار قبل الإهلاك

من الأمور التي ركّزت الشريعة الإسلامية عليها: تحريم الظلم في كل صوره وأشكاله.

ذلك لأن من تعريف الظلم: وضع الشيء في غير موضعه.

ومن الأدلّة الواضحة علىٰ تحريمه، قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ١٦٨ ـ ١٦٩].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

وفي الحديث القدسي: عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**قال الله تعالى: يا عبادي، إني حرمت الظلم علىٰ نفسي، وجعلته بينكم محرّماً؛ فلا تظالموا**» [صحيح مسلم: ٤/ ١٩٩٤].

وقد أجمع الفقهاء علىٰ تحريم الظلم، كما قال ابن الجوزي رحمه الله: الظلم يشتمل علىٰ معصيتين: أخذ مال الغير بغير الحق، ومبارزة الربّ بالمخالفة، والمعصية فيه أشدّ من غيرها؛ لأنه لا يقع غالباً إلا بالضعيف الذي لا يقدر على الانتصار، وإنما ينشأ الظلم عن ظُلمة القلب؛ لأنه لو استنار بنور الهدىٰ لاعتبر، فإذا سعىٰ المتقون بنورهم

الذي حصل لهم بسبب التقوى اكتنفت ظلمات الظلم الظالم ، حيث لا يغني عنه ظلمه شيئاً[1].

من هنا ولكي لا يقع الظلم علىٰ أحد، قبل أن يحدث تدمير قوم ما، أو إهلاك أمة من الأمم ، يأتيهم الإنذار الإلٰهي.

وذلك من أجل أن يعتبروا ويتعظوا ويعودوا إلىٰ خطّ الهداية والرشد. . والأمثلة في ذلك كثيرة:

أولاً: من سورة الشعراء:

سورة الشعراء من السور المكية في قول الجمهور ، فيها حديث مفصّل عن قصة نبيّ الله موسىٰ عليه السلام ، وخاصةً مع الطاغية فرعون ، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١ ـ ٦٢].

يتبعها قصة الخليل إبراهيم عليه السلام مع قومه ، مثال ذلك قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٨ ـ ٨٢].

ثم ينقلنا البيان الإلٰهي إلى إحدى اللوحات القرآنية ، والتي تتحدَّث عما يحدث من مناقشات بين المتقين والغاوين ، من ذلك قول الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الشعراء: ٩٦ ـ ٩٩].

ثم يعود السياق القرآني إلىٰ الحديث عن مصارع الأمم التي كذّبت الرسل ، واستكبرت وتجبّرت ، ثم تمرّدت علىٰ الخالق سبحانه ؛ كقصة إغراق قوم نوح عليه السلام ، منها قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى

---

(١) فتح الباري ، لابن حجر العسقلاني: ٥/ ١٠٠.

كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الشعراء: ١١٧ ـ ١٢٠].

تبع ذلك حديث مستفيض عن جماعة عاد ، وكيف عاندوا نبيّ الله هوداً عليه السلام ، ثم إلىٰ ما كانت النهاية الوخيمة ، من ذلك قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣ ـ ١٢٧].

وبعد ذلك كان الحديث عن قوم ثمود الذين عاندوا واستهزؤوا بالتعاليم التي جاء بها نبيّ الله صالح عليه السلام ، فكانت النتيجة هي الدمار والإهلاك ، من ذلك قول الله تعالى: ﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٥ ـ ١٥٨].

بعد ذلك جاء الحديث عن قوم لوط عليه السلام ، حيث ابتدعوا المنكرات التي لم يعرفها السابقون ، فوعظهم لوط عليه السلام لكن دون فائدة ، بل بدل أن يتعظوا ويعودوا إلى رشدهم ، إذا بهم يطردونه من بلده ، لا لذنبٍ اقترفه إلا لأنه كان يدعو إلى الطهارة ونحو ذلك ، من ذلك قوله سبحانه: ﴿ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٠ ـ ١٧٤].

وبعد ذلك جاء الحديث القرآني عن قصة شعيب عليه السلام مع قومه ، حيث كانوا يتلاعبون بالكيل والوزن ، وكانوا يتفاخرون بالغش والخداع ، فكانت النتيجة عذاب يوم الظُّلة ، قال الله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ

فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٩ ـ ١٩٠].

وبعد ذلك كله يلتفت البيان الإلٰهي بالخطاب إلىٰ مشركي مكة، ليقول لهم بلسان الحال والمقال: كل الأمم التي سبقتكم لم يتنزل بهم العذاب، حتىٰ أرسل الله إليهم من ينذرهم، وبالتالي فإذا فعلتم مثلما فعلوا، وكذبتم خاتم الأنبياء محمداً ﷺ، فإن قانون العقوبات سيطبّق عليكم لا محالة، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٠٤ ـ ٢٠٩].

وعلّق الإمام القرطبي علىٰ هٰذه الآيات بقوله: قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ قال مقاتل: قال المشركون للنبي ﷺ: يا محمد، إلىٰ متىٰ تعدنا بالعذاب ولا تأتي به؟!.

فنزلت: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ﴾ يعني في الدنيا، والمراد أهل مكة في قول الضحّاك وغيره.

﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ من العذاب والهلاك.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾: (ما) الأولى استفهام معناه التقرير، وهو في موضع نصب بـ(أغنى). و(ما) الثانية في موضع رفع.

ويجوز أن تكون (ما) الأولى نفياً لا موضع لها. و(ما) الثانية في موضع رفع بـ﴿أَغْنَىٰ﴾، والهاء العائدة محذوفة، والتقدير: ما أغنى عنهم الزمان الذي كانوا يمتعونه.

وعن الزهري: أن عمر بن عبد العزيز كان إذا أصبح أمسك بلحيته، ثم قرأ: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟

﴿يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ . . ثم يبكي ويقول:

﴿ونهارك يا مغرور سهوٌ وغفلة ... وليلك نوم والردىٰ لكَ لازمُ
فلا أنت في الإيقاظ يقظانُ حازمٌ ... ولا أنت في النوّام ناجٍ فسالمُ
تُسرُّ بما يفنىٰ وتفرحُ بالمنىٰ ... كما سُرّ باللذات في النوم حالمُ
وتسعىٰ إلى ما سوف تكره غبَّه ... كذلك في الدنيا تعيشُ البهائمُ

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾: ﴿مِن﴾ صلة؛ والمعنى وما هلكنا قرية، ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ أي: رسل.

﴿ذِكْرَىٰ﴾ قال الكسائي: ﴿ذِكْرَىٰ﴾ في موضع نصب علىٰ الحال، وقال النحاس: وهـٰذا لا يحصل، والقول فيه قول الفرّاء وأبي إسحاق أنها في موضع نصب علىٰ المصدر، وقال الفراء: أي يذكرون ذكرىٰ، وهـٰذا قول صحيح؛ لأن معنى ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ إلا لها مذكِّرون.

و﴿ذِكْرَىٰ﴾ لا يتبين فيه الإعراب؛ لأن فيها ألفاً مقصورة، ويجوز ﴿ذِكْرَىٰ﴾ بالتنوين، ويجوز أن يكون ﴿ذِكْرَىٰ﴾ في موضع رفع علىٰ إضمار مبتدأ. قال أبو إسحاق: أي إنذارنا ذكرىٰ، وقال الفراء: أي ذلك ذكرىٰ، وتلك ذكرى.

وقال ابن الأنباري: قال بعض المفسّرين: ليس في (الشعراء) وقف تام إلا قوله: ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾، وهـٰذا عندنا وقف حسن، ثم يبتدئ ﴿ذِكْرَىٰ﴾ علىٰ معنىٰ: هي ذكرى؛ أي يذكرهم ذكرىٰ، والوقف على ﴿ذِكْرَىٰ﴾ أجود، ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ في تعذيبهم حيث قدّمنا الحجّة عليهم وأعذرنا إليهم[1].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ١٢٩ ـ ١٣٠.

ثانياً: من سورة القصص:

وأما سورة القصص فهي سورة مكية ، ومنذ بدايتها نقرأ حديثاً مستفيضاً عن قصة نبيّ الله موسىٰ عليه السلام مع الطاغية فرعون وكيف أن العناية الإلٰهية أفشلت مخططات ومكر فرعون و . . . ، مثال ذلك قوله تعالى :

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص : ٤ ـ ٦].

ثم يسرد البيان الإلٰهي قصة الطاغية قارون ، ويفصل بين القصتين بقانون إلٰهي ثابت لا يتبدّل ولا يتغير ، في ظاهره حديث مختص بالمشركين ـ أهل مكة ـ الذين حاولوا بكل إمكانياتهم أن يوقفوا ويقفوا في طريق دعوة المعصوم ﷺ! . . ومن خلالهم يأتي التعميم للناس أجمعين ، يقول تعالى :

﴿ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾ [القصص : ٥٧ ـ ٥٩].

وفي التعليق علىٰ هٰذه الآيات يقول العلامة الآلوسي (ت : ١٢٧٠ هـ) رحمه الله : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ ﴾ أي : وكثيراً من أهل قرية كانت حالهم كحال هؤلاء من الأمن وخفض العيش والدعة ، حتىٰ بطروا واغترّوا ولم يقوموا بحق النعمة ، فدمرنا عليهم وخربنا ديارهم ، ﴿ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ ﴾ التي تمرّون عليها في

أسفاركم كحجر ثمود ؛ خاوية بما ظلموا ، حال كونها ﴿لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد تدميرهم ، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: إلاَّ زماناً قليلاً إذ لا يسكنها إلاَّ المارّة يوماً أو بعض يوم، أو إلا سكناً قليلاً؛ وقلته باعتبار قلّة الساكنين ، فكأنه قيل: لم يسكنها من بعدهم إلاَّ قليل من الناس.

وجُوِّز أن يكون الاستثناء من المساكن؛ أي: قليلاً منها سكن، وفيه بُعْدٌ. ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ منهم؛ إذ لم يخلفهم أحد يتصرّف تصرّفهم في ديارهم وسائر ذات أيديهم.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ بيان للعناية الربانية إثر بيان إهلاك القرىٰ المذكورة ؛ أي: وما صحّ وما استقام ، أو ما كان في حكمه الماضي وقضائه السابق أن يهلك القرىٰ قبل الإنذار ، بل كانت سنته عز وجل أن لا يهلكها ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا﴾ أي: في أصلها وكبيرتها التي ترجع تلك القرىٰ إليها؛ ﴿رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ الناطقة بالحق ، ويدعوهم إليه بالترغيب والترهيب ، وإنما لم يهلكهم سبحانه حتىٰ يبعث إليهم رسولاً ؛ لإلزام الحجة وقطع المعذرة بأن يقولوا: لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك ، وإنما كان البعث في أم القرىٰ ، لأن في أهل البلدة الكبيرة وكرسي المملكة ومحل الأحكام فطنة وكَيْساً ؛ فَهُمْ أقبَلُ للدعوة وأشرف.

وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم: عن قتادة: أن أم القرىٰ مكة ، والرسول محمد ﷺ ، فالمراد بالقرىٰ القرىٰ التي كانت في عصره صلوات الله عليه ، والأُوْلىٰ أَوْلى ، والالتفات إلىٰ نون العظمة في ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ لتربية المهابة وإدخال الروعة ، وقرئ: (في إمها) بكسر الهمزة إتباعاً للميم.

﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ﴾ عطف على ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾؛ ﴿إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ استثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال، أي: وما كنا مهلكين لأهل القرىٰ بعدما بعثنا في أمها رسولاً يدعوهم إلىٰ الحق، ويرشدهم إليه في حالٍ من الأحوال إلاَّ حال كونهم ظالمين بتكذيب رسولنا والكفر بآياتنا، فالبعث غاية لعدم صحة الإهلاك بموجب السُّنة الإلٰهية، لا لعدم وقوعه حتىٰ يلزم تحقق الإهلاك عقيب البعث[1].

* * *

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني: ٢٠/ ٤٠١ ـ ٤٠٢.

الفصل الثاني

الإهلاك تدخّل إلٰهي!!

خلق الله سبحانه المخلوقات ، ومنهم البشر ، وشاءت حكمته أن يكون فيهم أقوياء وضعفاء ، وأغنياء وفقراء ، وسعداء وتعساء . .

وأمر الله الأقوياء والأغنياء أن يساعدوا الضعفاء والفقراء ، وحرّم عليهم الاعتداء عليهم، وأكّد سبحانه علىٰ أن النهاية ستكون للمستضعفين ، مصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥ ـ ١٠٦].

لكن المشكلة في صدام الحق مع الباطل : أنه في كثيرٍ من الأحيان يتحكّم الباطل وأهله بالحق وأهله ، ويضيّقون عليهم الخناق ، ويقتلون منهم الكثير ، ويضحّي أهل الحق بتضحيات عظيمة ، لكن دون جدوىٰ! .

عندئذٍ يأتي الفرج والنصر للمستضعفين ، وتتدخّل العناية الإلٰهية لتُنقذ ما بقي ، ويكون الدمار والهلاك علىٰ المستكبرين المعاندين .

ونسوق أمثلة على ذلك :

أولاً: من سورة إبراهيم:

وهي سورة مكية ، حيث تبدأ بحرب قوية علىٰ الكافرين الذين

لا همَّ لهم إلاَّ الوقوف في وجه الدعوات.

علماً أن الله سبحانه لم يُرسل رسولاً ولا نبيّاً إلا بلغة قومه ، وذلك من باب إقامة الحجّة علىٰ المعاندين منهم.

ثم تستعرض السورة قصة كليم الله موسىٰ عليه السلام مع قومه ، حيث وقفوا في طريق الدعوة ، وقدّموا الغالي والنفيس في سبيل إسقاط كل ما له علاقة بالدعوة.

فما كان من موسى عليه السلام إلاّ أن راح يذكّرهم بنعم الله وآلائه، مع ضرب الأمثلة علىٰ ذلك ، ثم ذكّرهم بما فعلته الأقوام من قبل مع الرسل ، وماذا كانت النتيجة؟.

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [إبراهيم: ٩].

ثم أخبر سبحانه وتعالىٰ عمَّا دار بين الرسل عليهم السلام وبين المعاندين ، حيث ركّز الرسل في دعوتهم لأقوامهم علىٰ النظر والبحث والتفكّر في خلق السموات والأرض ، ثم العودة إلىٰ الأنفس وما فيها من عجائب وأسرار!.

وما كان جواب القوم إلا استهزاء أو سخرية: أنتم بشرٌ مثلنا تحاولون أن تُبعدونا عما كان عليه الآباء والأجداد!..

وكان ردّ الرسل: لكم الاختيار في أن تؤمنوا أو تكفروا ، ونحن ما لنا إلاَّ التوكل علىٰ الله في كل الأمور، وما لنا إلا الصبر على كلامكم البذيء والسيِّئ.

وبعد محاولات ومناقشات، وبعد أن قدّم الرسل البراهين والحجج، كان الردّ هو التهديد بالإخراج من البلاد.

وعندئذ جاء التدخل الإلٰهي ، مصداق ذلك قوله تعالىٰ في سياق القصة : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ [إبراهيم : ١٣ ـ ١٧].

وفي تعليقه على هٰذه الآيات ، يقول الحافظ ابن كثير (ت : ٧٧٤ هـ) رحمه الله : «يخبر الله تعالىٰ عمَّا توعّدت به الأمم الكافرة رسلهم من الإخراج من أرضهم والنفي من بين أظهرهم كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ ﴾ [الأعراف : ٨٨].

وكما قال قوم لوط عليه السلام : ﴿ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل : ٥٦].

وقال تعالى إخباراً عن مشركي قريش : ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٦].

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٠].

وكان من صنعه تعالىٰ أنه أظهر رسوله ونصره ، وجعل له بسبب خروجه من مكة أنصاراً وأعواناً وجنداً يقاتلون في سبيل الله تعالىٰ ، ولم يزل يرقيه تعالىٰ من شيء إلى شيءٍ حتىٰ فتح له مكة التي أخرجته ، ومكَّن له فيها ، وأرغم أنوف أعدائه منهم ومن سائر أهل الأرض حتىٰ دخل الناس في دين الله أفواجاً ، وظهرت كلمة الله ودينه علىٰ سائر الأديان في مشارق الأرض ومغاربها في أيسر زمان.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾.

كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣].

وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥ ـ ١٠٦].

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وقال: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

أما قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أي: هذا الوعد بالتمكين لمن خاف مقامي بين يدي يوم القيامة، وخشي من وعيدي؛ وهو تخويفي وعذابي، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠ ـ ٤١].

وقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]»[1].

ثانياً: من سورة الأنفال:

في سورة الأنفال المدنية حديث طويل عن الصراع بين حملة لواء

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٤/ ١١٣ ـ ١١٤.

الدعوة والتسامح وهم المؤمنون ، وبين حملة لواء استئصال الآخر وهم المشركون ـ أي: مشركو مكة ـ حيث فعل المشركون مع الرسول ﷺ الأعاجيب ، ابتداءً من التكذيب ، إلىٰ السخرية والاستهزاء ، مروراً بالحصار الاقتصادي ، إلىٰ المقاطعة الكاملة ، إلىٰ محاولة القتل و . . . !! .

لكن قرار الله سبحانه : ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال : ٧ ـ ٨] .

ثم يتحوَّل حديث السورة إلىٰ ما حدث في معركة بدر الفاصلة ، حيث ضاقت المسألة بالمؤمنين ، فالتجؤوا بصدقٍ إلىٰ رافع السماء بلا عمد ، وكانت الاستجابة ، وكان المدد .

وبعد عدد من الآيات ، يتمّ التركيز على قانون إهلاك الأمم ، وذلك وقت المحن العصيبة ، مصداق ذلك قوله تعالى :

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٥٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٥٣ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنفال : ٥٢ ـ ٥٤] .

وفي شرح أبي حيان الأندلسي (ت : ٧٥٤ هـ) لهذه الآيات :

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ . . . عَلِيمٌ ﴾ ؛ قال : تقدّم تفسير نظير هٰذه الآية في أوائل سورة آل عمران . . ولذلك نعود إلىٰ تفسيره في آل عمران :

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [آل عمران : ١١] : لما ذكر أن من كفر وكذّب

بالله مآله إلىٰ النار ، ولن يغني عنه ماله ولا ولده ، ذكر أن شأن هؤلاء في تكذيبهم لرسول ﷺ ، وتَرَتُّبِ العذاب علىٰ كفرهم ، كشأن من تقدّم من كفار الأمم ، أُخِذوا بذنوبهم ، وعُذّبوا عليها ، ونبّه إلىٰ آل فرعون ؛ لأن الكلام مع بني إسرائيل ، وهم يعرفون ما جرىٰ لآل فرعون حين كذّبوا بموسى؛ من إغراقهم وتصييرهم آخراً إلى النار ، وظهور بني إسرائيل عليهم ، وتوريثهم أماكن ملكهم ، ففي هـٰذا كله بشارة لرسول الله ﷺ ، ولمن آمن به ، أن الكفار مآلهم في الدنيا إلى الاستئصال ، وفي الآخرة إلىٰ النار ، كما جرىٰ لآل فرعون ، أهلكوا في الدنيا ، وصاروا إلىٰ النار في الآخرة.

. . . قال ابن عطية: والدأب ، بسكون الهمزة وفتحها ، مصدر دأب يدأب ، إذا لازم فعل شيء ، ودام عليه مجتهداً فيه ، ويقال للعادة: دأب ، وقال أبو حاتم: وسمعت يعقوب يذكر: (كدأَب) بفتح الهمزة ، وقال لي وأنا غُليمٌ: علىٰ أي شيء يجوز: كدأب؟ فقلت له: أظنّه من: دئب يدأب دأباً. . فقبل ذلك مني ، وتعجّب من جودة تقديري علىٰ صغري.

وآل فرعون: أشياعه وأتباعه ، ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ هم كفار الأمم السابقة ، كقوم نوح ، وقوم هود ، وقوم شعيب ، وغيرهم ، فالضمير علىٰ هـٰذا عائد علىٰ آل فرعون ، ويحتمل أن يعود الضمير علىٰ الذين كفروا ؛ وهم معاصرو رسول الله ﷺ ، وموضع: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ الجر عطفاً علىٰ: آل فرعون.

﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ [آل عمران: ١١] هـٰذه الجملة تفسير للدأب ، كأنه قيل: ما فعلوا؟ وما فعل بهم؟ فقيل: كذبوا بآياتنا ، فهي كأنها جواب سؤال مقدّر ، وجوّزوا أن تكون في موضع الحال ، أي: مكذبين ، وجوزوا أن يكون الكلام تمّ عند قوله: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ ثم ابتدأ

فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا﴾ فيكون: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾، مبتدأ، و: ﴿كَذَّبُوا﴾ خبره، وفي قوله: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾، التفات، إذ قبله ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٠]، فهو اسم غيبة، فانتقل منه إلىٰ التكلم.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١١] رجع من التكلم إلى الغيبة، ومعنىٰ الأخذ بالذنب: العقاب عليه، والباء في: ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ للسبب.

﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [آل عمران: ١١]: فيه إشارة إلى سطوة الله على من كفر بآياته وكذب بها، وقيل: تضمّنت هذه الآيات من ضروب الفصاحة: حسن الإبهام، وهو فيما افتتحت به، لينبّه الفكر إلى النظر فيما بعده من الكلام[1].

ويتابع أبو حيان تفسير الآيات بقوله:

﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ وخبره ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ﴾ أي ذلك العذاب أو الانتقام بسبب كذا، وظاهر النعمة أنه يُراد به ما يكونون فيه من سعة الحال والرفاهية والعزة والأمن والخصب وكثرة الأولاد، والتغيير قد يكون بإزالة الذات، وقد يكون بإزالة الصفات؛ فقد تكون النعمة أذهبت رأساً، وقد تكون قلّلت وأضعفت.

وقال القاضي: أنعم الله عليهم بالعقل والقدرة وإزالة الموانع وبتسهيل السبيل.

والمقصود أن يشتغلوا بالعبادة والشكر ويعدلوا عن الكفر، فإذا صرّفوا هٰذه الأمور إلىٰ الكفر والفسق فقد غيّروا نِعَمَ الله علىٰ أنفسهم، فلا جرم استحقوا تبديل النعم بالنقم، والمنح بالمحن.. وهٰذا من أوكد ما يدل علىٰ أنه تعالىٰ لا يبتدئ أحداً بالعذاب

---

(١) البحر المحيط في التفسير: ٣/ ٣٧ ـ ٣٨.

والمضرّة ، وأن الذي يفعله لا يكون إلا جزاءً علىٰ معاصٍ سلفت ، ولو كان تعالىٰ خلقهم وخلق حياتهم وعقولهم ابتداءً للنار ـ كما يقوله القوم ـ لما صح ذلك. انتهىٰ.

قيل: وظاهر الآية يدلّ علىٰ ما قاله القاضي ، إلا أنه يمكن الحمل علىٰ الظاهر؛ لأنه يلزم من ذلك أن تكون صفة الله معلّلة بفعل الإنسان ومتأثرة له ، وذلك محال في بديهة العقل ، وقد قام الدليل علىٰ أن حكمه وقضاءه سابق أولاً ، فلا يمكن أن يكون فعل إلا بقضائه وإرادته، وقد أشار بالنعمة إلىٰ محمد ﷺ؛ بعثه رحمة فكذّبوه ، فبدّل الله ما كانوا فيه من النعمة بالنقمة في الدنيا وبالعقاب في الآخرة. قاله السدّي.

والظاهر من قوله: ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ العموم في كل من أنعم الله عليه من مسلم وكافر ، وبرّ وفاجر ، وأنه تعالىٰ متىٰ أنعم علىٰ أحدٍ فلم يشكر بدّله عن النعمة بالنقمة، وقيل: القوم هنا قريش؛ أنعم الله تعالىٰ عليهم ليشكروهُ ويفردوه بالعبادة ، فجحدوا وأشركوا في ألوهيته ، وبعث إليهم الرسول ﷺ فكذّبوه ، فلما غيّروا ما اقتضته النعمة وحدّثتهم أنفسهم بأن تلك النّعم من قِبَلِ أوثانهم وأصنافهم ؛ غيَّر تعالىٰ عليهم بنقمة في الدنيا وأعدّ لهم العذاب في العقبىٰ.

قال ابن عطية: ومثال هٰذا نعمة الله علىٰ قريش بمحمد ﷺ ، فكفروا وغيّروا ما كان يجب أن يكونوا عليه ، فغيّر الله تلك النعمة بأن نقلها إلىٰ غيرهم من الأنصار وأحلّ بهم عقوبته. انتهىٰ.

وتغيير آل فرعون ومشركي مكة ومن يجري مجراهم بأن كانوا كفاراً ولم تكن لهم حالة مرضية ، فغيّروا تلك الحالة المسخوطة إلىٰ أسخط منها من تكذيب الرسل والمعاندة والتخريب وقتل الأنبياء

والسّعي في إبطال آيات الله ، فغيّر الله تعالىٰ ما كان أنعم عليهم به ، وعاجلهم ولم يمهلهم.

وفي قول الزمخشري: ذلك العذاب أو الانتقام بسبب أن الله تعالى لم ينبغِ له ولم يصحّ في حكمته أن يغيّر نعمه عند قوم حتىٰ يغيروا ما بهم من الحال ؛ دسيسة الاعتزال.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوال مكذّبي الرسول ﴿عَلِيمٌ﴾ بأفعالهم؛ فهو مجازيهم على ذلك.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ . . . ظَٰلِمِينَ﴾: قال قوم: هـٰذا التكرار للتأكيد. وقال ابن عطية: هـٰذا التكرير لمعنىٰ ليس للأول، أو الأول: دأب في أن هلكوا لما كفروا ، وهـٰذا الثاني: دأب في أن لم يغير نعمتهم حتىٰ يغيّروا ما بأنفسهم. انتهىٰ.

وقال قوم: كرّر لوجوه ؛ منها: أن الثاني جرىٰ مجرىٰ التفصيل للأول؛ لأن في ذلك ذكر إجرامهم ، وفي هـٰذا ذكر إغراقهم ، وأُريد بالأول ما نزل بهم من العقوبة حال الموت ، وبالثاني ما نزل بهم من العذاب في الآخرة ، وفي الأول: ﴿بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلىٰ إنكار دلائل الإلٰهية ، وفي الثاني: ﴿بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ إشارة إلى إنكار نعم مَنْ ربَّاهم، ودلائل تربيته وإحسانه علىٰ كثرتها وتواليها ، وفي الأول اللازم منه الأخذ ، وفي الثاني اللازم منه الهلاك والإغراق.

وقال الزمخشري: في قوله تعالى: ﴿بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ زيادة دلالة علىٰ كفران النعم وجحود الحق ، وفي ذكر الإغراق بيان للأخذ بالذنوب.

وقال الكرماني: يحتمل أن يكون الضمير في الآية الأولى في ﴿كَفَرُوا۟﴾ عائداً على قريش ، وفي الأخيرة في ﴿كَذَّبُوا۟﴾ عائداً على ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾. انتهى.

وقيل: ﴿فَأَهْلَكْنَـٰهُم﴾ هم الذين أهلكوا يوم بدر ، فيلزم من هـٰذا

القول بأن يكون الضمير في ﴿ كَذَّبُواْ ﴾ عائداً علىٰ كفار قريش.

وقال التبريزي: ﴿ فَأَهْلَكْنَٰهُم ﴾ قوم نوح بالطوفان، وعاداً بالريح، وثمودَ بالصيحة، وقوم لوط بالخسف، وفرعون وآله بالغرق، وقوم شعيب بالظلّة، وقوم داود بالمسخ، وأهلك قريشاً وغيرها بعضهم بالفزع وبعضهم بالسّيف وبعضهم بالعدسة كأبي لهب، وبعضهم بالغدة كعامر بن الطفيل، وبعضهم بالصاعقة كأويد بن قيس. انتهىٰ.

فيظهر من هٰذا الكلام أن الضمير في ﴿ كَذَّبُواْ ﴾ و﴿ فَأَهْلَكْنَٰهُم ﴾ عائد على المشبّه والمشبه به في ﴿ كَدَأْبِ ﴾ إذ عمَّ الضمير القبيلتين، وإنما خصّ ﴿ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ بالذكر، وذكر الذين أهلكوا به؛ وهو إغراقهم؛ لأنه انضمّ إلى كفرهم دعوىٰ الإلٰهية والربوبية لغير الله تعالىٰ، فكان ذلك أشنع الكفر وأفظعه، ومراعاة لفظ (كل) إذا حذف ما أضيف إليه، ومعناه جائزة، واختير هنا مراعاة المعنى لأجل الفواصل؛ إذ لو كان التركيب: (وكلّ كان ظالماً) لم يقع فاصلة، وقال الزمخشري: ﴿ وَكُلٌّ ﴾ من غرقىٰ القبط وقتلىٰ قريش ﴿ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي. انتهىٰ.

ولا يظهر تخصيص الزمخشري ﴿ كُلٌّ ﴾ بغرقىٰ القبط وقتلىٰ قريش؛ إذ الضمير في ﴿ كَذَّبُواْ ﴾ وفي ﴿ فَأَهْلَكْنَٰهُم ﴾ لا يختصّ بهما، فالذي يظهر عموم المشبّه به؛ وهم آل فرعون والذين من قبلهم، أو عموم المشبّه والمشبّه بهم[1].

* * *

(١) البحر المحيط في التفسير: ٥/ ٣٣٧ ـ ٣٣٩.

الباب الثاني

أَسْبَابُ الإِهْلاكِ

الفصل الأول: تكذيب الرّسل.

الفصل الثاني: الاستهانة بالوعيد.

الفصل الثالث: الانغماس في الترف.

الفصل الرابع: انتشار الفساد وكثرة المفسدين.

* * *

الفصل الأول

تكذيب الرسل

قبل الحديث عن هٰذا الفصل لا بد من إطلالة سريعة علىٰ هٰذه المسألة المهمة، ولذلك لا بدّ من تقسيم هٰذا الفصل إلىٰ عدّة مطالب، أهمها:

المطلب الأول: إطلالة علىٰ حياة الأنبياء والرسل عليهم السلام:

لا تكتمل عقيدة المؤمن وإيمانه إلاَّ بالإيمان بالرسل وما أُنزل إليهم، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤].

وبالتالي، فالنبيّ هو: عبدٌ اصطفاه الله بالوحي إليه، وأما الرسول فهو: النبي المكلّف من قِبَل الله بتبليغ شريعته لخلقه.

وتؤكد الوقائع أن الناس في كل عصر ومصر بحاجةٍ ماسّةٍ إلىٰ أنبياء الله ورسله؛ خاصةً من زاوية أنهم هم الذين يرشدون الناس وينبهونهم إلى التمسك بالصراط المستقيم، والابتعاد عن الوقوع في الشهوات والغرائز، وما إلى هنالك من أخلاق فاسدة ومفاهيم باطلة..

إضافة إلى أن الناس بحاجة إلىٰ الإنسان القدوة والأسوة، ولا يكون ذلك إلا بوجود الأنبياء والرسل، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ

أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

أهم وظائف الرسول ومهماته(١):

١ ـ تبليغ الشريعة الربانية للناس: قال تعالى مخاطباً خاتم الأنبياء محمد صلوات الله وسلامه عليه: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

٢ ـ توضيح وشرح معاني النصوص المنزلة إليهم: مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

٣ ـ تربية الناس علىٰ منهج الشريعة: وذلك عن طريق اتخاذ الإصلاح سبيلاً متجرّداً عن الأغراض الشخصية؛ قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وعلى أن يكون أسلوب الدعوة محصوراً بالحكمة والموعظة الحسنة، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

٤ ـ قيادة الأمة في مجالات الدين والدنيا: ولذلك أمر الله أتباع الأنبياء والرسل بالطاعة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ

---

(١) للتوسع يراجع: منهج القرآن الكريم في عرض وظائف رسول الله ﷺ، للمؤلف، ص ١٢٣ ـ ١٥٩.

وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وبالتالي: فالرسول يعتبر الحاكم والقاضي، مصداق ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

٥ ـ الشهادة علىٰ الأمة بأنه بلغ الرسالة وقام بالنصح: مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

المطلب الثاني: نماذج من تكذيب الناس للرسل:

أورد البيان الإلٰهي قصصاً مفصّلةً، أو مختصرة، عن حكايات الأنبياء والرسل مع أقوامهم، مثال ذلك:

١ ـ من سورة القصص:

وهي سورة مكية، فيها دروس كثيرة، محورها يدور حول الاستكبار والاستضعاف في العالم، ومطلعها تركيز علىٰ نصرة الله للمستضعفين، قال الله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥ ـ ٦].

فالله سبحانه يمنّ علىٰ الضعفاء بأنه سيقلب حالهم من الضعف والذل إلىٰ القوة والعزّة، وذلك لأن الأيام دُوَل، كما قال الشاعر:

هي الأيامُ كما شاهدتُها دُوَلٌ ... من سرّه زمنٌ ساءتْهُ أزمانُ

وبعد ذلك تأتي القصة الأولىٰ، وهي قصة كليم الله موسىٰ عليه السلام، حيث نجد أكثر من أربعين آية تروي تفصيلات ما جرىٰ معه منذ الصغر، مروراً بمرحلة الفتوّة والشباب، إلىٰ وروده ماء مدين

وتعرّفه على ابنة نبيّ الله شعيب عليه السلام ، ثم زواجه منها . . .

ولما جاءه الأمر الإلٰهي بأن يبلّغ الرسالة لفرعون ، حدث ما حدث ، حيث لم يتقبّل فرعون ذلك ، وهو الذي ادّعى الربوبية!! .

وهكذا كُذّب موسىٰ عليه السلام، فحدث الصدام بين الحق والباطل، وشاء الله النصر للحق والهزيمة للباطل وأعوانه ، مصداق ذلك قوله تعالىٰ في معرض القصة : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [القصص: ٣٦].

أجل! إن طغيان فرعون وجنوده منعهم من سماع صوت المستضعفين، وبالتالي فتكذيبهم للرسل عجّل لهم النهاية ، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴾ [القصص: ٣٨ ـ ٤٢].

والعجيب أن الطاغية فرعون عاقبه الله تعالىٰ بالشيء الذي تباهىٰ به! حيث افتخر بقصوره وأنهاره و . . . فأغرقه الله بالماء! .

قال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ . . إلى أن قال: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّـَٔآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴾ [الزخرف: ٥١ ـ ٥٦].

والشيء الرائع في المسألة أنه وبعد انتهاء القصة في السورة ، يأتي القانون الذي يهلك الله الأمم بسببه ، وفيه يقول تعالى: ﴿ وَكَمْ

أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٨ ـ ٥٩].

وبعد قليل من الآيات يأتي الحديث عن الطاغية قارون: حيث كان رجلاً من أتباع نبي الله موسىٰ عليه السلام، وشاء الله أن يبتليه بالمال كما ابتلىٰ فرعون بالمنصب، ولكن بدل أن يشكر الله علىٰ نعمه، إذا به يطغىٰ بالمال ويتكبّر، ويتجبّر علىٰ عباد الله.

فنصحه الناصحون مراراً وتكراراً، وطلبوا منه أن لا يفرح فرح الكبر والبطر والاستعلاء علىٰ عباد الله، وذكّروه بالفقراء والمحتاجين والمستضعفين، لكن دون جدوىٰ.

ووصل به الحال إلىٰ تكذيب رسول الله موسى عليه السلام، فكانت النتيجة أن عاقبه الله عقوبة كبيرة، قال تعالىٰ في معرض القصة: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٧٧ ـ ٨١].

والجميل مرة أخرىٰ أن أواخر السورة مرتبط بمطالعها!.. ففي مطالع السورة حديث رائع عن أن الله سيمكّن لأهل الحق المستضعفين ويورّثهم ملكوته، وسيخزي الظالمين المكذّبين لرسل الله وكتبه، وفي خواتيم السورة أيضاً قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ

عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

٢ ـ من سورة هود عليه السلام:

وهي سورة مكية، فيها قصص بعض الأقوام السابقين، وكيف أرسل الله إليهم الأنبياء والرسل، وكيف وقفوا منهم موقف العناد والتكبر والتكذيب، ومن تلك القصص قصة نوح عليه السلام:

فبعد مرور قرون علىٰ آدم عليه السلام، حيث عُبدت الأصنام والطواغيت، وانتشر الفساد وعمّ البلاء، عندئذٍ بعث الله شيخ الأنبياء نوحاً عليه السلام، فراح يدعوهم إلىٰ نبذ الأصنام والتوجّه إلىٰ عبادة الواحد الأحد سبحانه، لكن القوم كانوا سيئين، فما آمن معه إلا قليل!.

وطال زمن الدعوة، حتىٰ بلغ ألف سنة إلا خمسين عاماً، وما زاد عدد الذين آمنوا عن الثمانين!.

لقد دعاهم سرّاً وجهراً، ليلاً ونهاراً، ترغيباً وترهيباً، ولكن دون جدوىٰ!.. فما كان منه إلا أن توجّه إلىٰ الله بالدعاء عليهم.

فجاءه الأمر أن يصنع سفينة، لكن القوم راحوا يستهزئون بعمله وبمن آمن معه من القلة والضعفاء.

وكانت النتيجة الحتمية لتكذيبهم أن حدث الطوفان فأغرقهم أجمعين.. وفي معرض القصة يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ۖ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٥ ـ ٢٧].

وفي سورة أخرىٰ آيات قرآنية تتحدث عن مصرع قوم نوح

بالطوفان ، وكيف كان التجاء نوح عليه السلام إلىٰ ربه ، وكيف استجاب الله له ودمّر القوم الكاذبين ، قال تعالى: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٢٤ ـ ٢٧].

. . . وبعد ذلك ينتقل الحديث القرآني إلىٰ قصة نبيّ الله هود عليه السلام ؛ حيث أرسله الله تعالىٰ إلىٰ قوم عاد ، فدعاهم إلىٰ التوحيد ، وأعلمهم بكل صراحة أنه لا يبتغي من دعوته مالاً ولا منصباً ولا أجراً، إنما يبتغي الأجر من الله سبحانه ، ولكن القوم عاندوا . . وكذّبوا . . واستهزؤوا به وبمن آمن به ، وعند ذلك جاءت العقوبة الربانية عن طريق أحد جنود الله ؛ وهي الريح الصرصر العاتية ، فدمّر البيوت عليهم ، وفي سياق القصة يقول الله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [هود: ٥٩ ـ ٦٠].

. . . وبعد ذلك ينتقل الحديث القرآني إلىٰ قصة نبي الله صالح عليه السلام ، حيث أرسله الله تعالىٰ إلى قوم ثمود ، فدعاهم إلىٰ التوحيد ، وطالبهم بنبذ الأصنام والأنداد، وقدّم لهم دليلاً هي الناقة ، وحذّرهم من إيذائها أو قتلها ، لكن القوم عاندوا وكذبوا واستهزؤوا ، ثم أقدموا علىٰ قتل الناقة تحدّياً ، وعند ذلك أرسل الله عليهم الصيحة من السماء والرجفة من الأسفل ، فسكنت الأجساد وتحوّلت إلى جثث هامدة ، وفي ذلك يقول تعالىٰ: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ

تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ﴿٦١﴾ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦١ ـ ٦٨].

. . . وبعد قليل يأتي الحديث عن قصة لوط عليه السلام ، حيث أرسله الله تعالىٰ إلىٰ قوم فَجَرة ، فقد ابتدعوا فاحشة إتيان الذّكران من العالمين ، وتركوا الزواج الفطري الحلال ، وقطعوا السّبل ، وتباهوا بالمنكرات! . . فدعاهم نبيّ الله لوط عليه السلام إلىٰ عبادة الله وحده ، وحذّرهم من المنكرات والفواحش ، وبدل أن يعودوا إلىٰ رشدهم ، ويخرجوا من غيّهم وطغيانهم؛ تبجّحوا وتطاولوا علىٰ النبي ومن معه، وأعلنوا تكذيبهم له، عند ذلك جاء التهديد. . ثم جاء الوعيد، حيث أمر الله الجبار جبريل أن يقتلع بلادهم، ثم يرفعها إلى الأعلى ثم يتركها! .

وبعد ذلك أمطرهم بحجارة صلبة ، حتىٰ أبادها عن بكرة أبيها ، وفي ذلك يقول تعالىٰ: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ﴾ [هود: ٨١ ـ ٨٣].

. . . وبعدها يأتي الحديث عن قصة نبي الله شعيب عليه السلام ،

حيث أُرسل إلىٰ أهل مدين ، حيث كانوا يخيفون المارّة ويقطعون السبيل ويعبدون شجرة من الأيك ، وكانوا يبخسون المكيال والميزان ويطفّفون فيهما ، ويأخذون بالزائد ، ويدفعون بالناقص! .

وراح شعيب عليه السلام يدعوهم إلىٰ نبذ كل الفواحش وخاصة الغش والتطفيف ، فما كان منهم إلا العناد والتكذيب ، وكانت النتيجة عقوبة من الله سبحانه ، وذلك بأن سلط عليهم الرجفة والزلازل الشديدة إضافة إلىٰ الحرّ الشديد ، وفي سياق القصة يقول الله تعالىٰ: ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ۖ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ [هود: ٩١ ـ ٩٥].

أجل! . . في بدايات سورة هود تأكيد علىٰ القانون القرآني ، حيث إن كل المكذبين للأنبياء والرسل ، ستكون نتيجتهم الحتمية التدمير والإهلاك ، مصداق ذلك قول الله تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ۘ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [هود: ١٨ ـ ٢١].

وفي ذلك تأكيد علىٰ أن أحد أهم أسباب إهلاك الأقوام بُعدهم عن

المنهج القويم ، وتكذيبهم للأنبياء والرسل.

حيث إن الله تعالىٰ يعاقب المكذبين والظالمين والمتمرّدين ، فذلكم فرعون الذي تفاخر بالأنهار ، أغرقه الله بالنهر العظيم!.. وذلكم قارون طغىٰ بالمال وتطاول علىٰ خلق الله ، فخسف الله به الأرض وبمن معه!.. وهـٰذا لا ينحصر في الأقوام البائدة ، إنما هو أمرٌ متجدّد في كل زمان ومكان ، مصداق ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ... ﴾ [النحل: ٢٦ ـ ٢٧].

وقوله سبحانه: ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [المرسلات: ١٦ ـ ١٨].

ثم في خواتيم السورة ، وذلك بعد الحديث التفصيلي عن طائفة من الأقوام التي دمّرها الله تعالىٰ ، يأتي الحديث عن سُنَّة الله في المكذبين والظَّلمة ، يقول الله تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٠ ـ ١٠٢].

* * *

الفصل الثاني

الاستهانة بالوعيد!!

وهـٰذا واحدٌ من الأسباب التي تؤدي إلىٰ إهلاك الشعوب والأمم ، وقد ذكر لنا البيان الإلٰهي نماذج من حياة الأقوام ، مثال ذلك :

أولاً: قصة ثمود مع النبي صالح عليه السلام:

ذلك أن الله تعالىٰ عندما أرسل نبيّه إلىٰ جماعة ثمود ، دعاهم إلىٰ عبادة الله سبحانه ، وقدّم لهم الحجج والبراهين والبينات ، واتفق معهم علىٰ قسمة الماء بينهم وبين الناقة ، ولكن الصراع بين الحق والباطل مستمر ، فالفريق الأول متمسكٌ بالإيمان واتباع النبي صالح ، والفريق الثاني مستكبر معاند، متمسك بما كان عليه الآباء والأجداد! .

وفي سياق القصة يقول سبحانه : ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٧ ـ ٧٩].

وعلّق الإمام القرطبي علىٰ هـٰذه الآيات بقوله :

قوله تعالىٰ : ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ ﴾ العَقْر : الجرح ، وقيل : قطع عضو يؤثّر في النفس ، وعقرت الفرس : إذا ضربت قوائمها بالسّيف . .

وقد اختلف في عاقر الناقة علىٰ أقوال ، أصحّها ما في «صحيح

مسلم»: من حديث عبد الله بن زمعة، قال: خطب رسول الله ﷺ فذكر الناقة وذكر الذي عقرها، فقال: «**إذ انبعث أشقاها، انبعث لها رجل عزيز عارم منيع في رهطه مثل أبي زمعة**» [صحيح مسلم: (٢٨٥٥)].

وقوله تعالى: ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: استكبروا، عتا يعتو عتوّاً؛ أي: استكبر، وتعتّىٰ فلان: إذا لم يُطع، والليل العاتي: الشديد الظلمة.

﴿وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ أي: من العذاب.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ أي: الزلزلة الشديدة، وقيل: كانت صيحة شديدة خلعت قلوبهم.

﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ﴾ أي: بلدهم، وقيل: وُحّد علىٰ طريق الجنس، والمعنىٰ: في دورهم، وقال في موضع آخر: ﴿فِي دِيَارِهِمْ﴾ [هود: ٦٧] أي: في منازلهم.

﴿جَاثِمِينَ﴾ أي: لاصقين بالأرض علىٰ رُكبهم ووجوههم، كما يجثُم الطائر، أي: صاروا خامدين من شدّة العذاب..

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ أي: عند اليأس منهم، ﴿وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ يحتمل أنه قال ذلك قبل موتهم، ويحتمل أنه قاله بعد موتهم، كقوله صلوات الله عليه لقتلىٰ بدر: «**هل وجدتم ما وعد ربكم حقّاً؟**» فقيل: أتكلّم هؤلاء الجيف؟ فقال: «**ما أنت بأسمع منهم، ولكنهم لا يقدرون علىٰ الجواب**» [صحيح البخاري: (٣٩٧٦)].

﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ أي: لم تقبلوا نُصحي[1].

---

(١) باختصار من الجامع لأحكام القرآن: ٤/ ٢١٧ ـ ٢١٨.

ثانياً: قصة بني إسرائيل مع نبي الله موسى عليه السلام:

. . . وفي قصة نبي الله موسىٰ عليه السلام نرى قريباً مما حدث في قصة صالح عليه السلام ، حيث استكبر قومه وعاندوا وطلبوا ـ وهم بنو إسرائيل ـ من موسىٰ عليه السلام أن يأتيهم بالآيات ، فإنهم مصرّون علىٰ العناد والكفر ، حتىٰ إذا حلّ بهم البلاء وأنزل الله عليهم الجراد والقمّل ونحو ذلك ، عند ذلك طلبوا من موسى عليه السلام أن يدعو الله لهم علىٰ أساس أنهم سيعودون إلىٰ الإيمان ، لكنهم كانوا كاذبين ، وفي سياق القصة يقول الله تعالىٰ: ﴿ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٢ ـ ١٣٦].

ثالثاً: مع نبي الله شعيب عليه السلام:

حيث كذبه قومه ، ثم تحدّوه قائلين: هانحن ننتظر ما وعدتنا به من العذاب ، فافعل ما بدا لك إن كنت صادقاً بما تزعم!!.

وفي سياق القصة يقول تعالىٰ علىٰ لسانهم: ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٨٥ ـ ١٨٩].

ويعلق الشيخ محمد متولي الشعراوي رحمه الله علىٰ هٰذه الآيات بقوله: قوله تعالىٰ: ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾: مسحّر ، أي: سحّره

غيره ، وهي صيغة مبالغة للدلالة علىٰ حدوث السّحر ووقوعه عليه أكثر من مرة ، فلو سُحر مرة واحدة لقلنا: مسحور ، والمعنىٰ: أنت مختلُّ العقل والتفكير ، مجنون ، لن نسمع لك.

﴿ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ وما دُمت أنت بشراً مثلنا ، ولم تتميّز عنّا بشيء ، فكيف تكون رسولاً؟!.. ثم ﴿ وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ أي: وما نظنك إلاَّ كذّاباً ، كالذين سبقوك!.

﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ أي: إن كنت صادقاً ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ يطلبون العذاب ويستعجلونه ، كما قال سبحانه في آية أخرىٰ: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الأحقاف: ٢٢].

ومن العجيب حين ينزل بهم العذاب يقولون: أنظرنا! كيف وأنتم الذين استعجلتم العذاب؟!.

ومعنى ﴿ كِسَفًا ﴾ مفردها كِسْفة ، مثل قِطَع وقطعة ، وقد وردت هٰذه الكلمة علىٰ ألسنة كثير من المكذبين ، وقال الكفار للنبي محمد ﷺ: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٩٠ ـ ٩٢].

وقالوا: ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وكان عليهم أن يقولوا: اللهم إن كان هٰذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ، وهٰذا يدلُّك علىٰ حمقهم وعنادهم.

﴿ قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فهو سبحانه العليم بكم ، إن كنتم أهلاً للتوبة والندم والأمل ، بأن تتوبوا ؛ فلن يصيبكم العذاب ، أو كنتم مُصرّين على العصيان والتكذيب ، فسوف يصيبكم عذاب الهلاك

والاستئصال ، فأنا لن أحكم عليكم بشيء ، لأنني بشرٌ مثلكم لا أعرف ما في نيّاتكم ، لذلك سأكل أمركم إلى ربكم عز وجل الذي يعلم أمري وأمركم ، وسرّي وسرّكم.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ فكيف يكذبونه ، وهو لم ينسب الأمر لنفسه ، ووكلهم إلىٰ ربهم؟!.. إذن: فهم لا يكذبونه إنما يكذبون الله ، لذلك يأتي الجزاء: ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ﴾[1].

* * *

(١) باختصار من: تفسير الشعراوي: ١٧/ ١٠٦٧٧ ـ ١٠٦٧٩.

الفصل الثالث

الانغماس في الترف!

عرّف العلماء الترف بأنه: مجاوزة حدّ الاعتدال في التنعّم بنعمةٍ أو أكثر من النعم التي يحصل بها الترف.

ومن مظاهر الترف: التفاخر بالملبس، والتباهي بالمطعم، والتفاخر بالمسكن وأثاثه، والتباهي بحفلات الأعراس ونحوها...

لكن الطامة الكبرىٰ أن للترف آثاراً وخيمة، منها: ضعف الأمم والشعوب، حيث يغرق المترفون بالمفاسد، وتكثر المظالم، وتنتشر الدياثة، ويفشو في المجتمع مرض التكبّر، و...!.

أولاً: قارون وعاد وسبأ وعاقبة ترفهم:

وما قصة قارون وتكبّره علىٰ عباد الله، ثم العقوبة التي حلّت به وبزينته وما يملك عنّا ببعيد!.

ومثلها ما حدث لقوم عاد، حيث عاشوا النعيم والترف والبسطة في الأموال والأجسام، وعاشوا أيضاً في قصور وبساتين، وسكنوا البيوت التي نحتوها في الصخور، وأجروا المياه.. ثم بدل أن يحمدوا الله علىٰ نعمه ويشكروه علىٰ ذلك، جحدوا وكفروا وعصوا رسوله، فكانت عاقبتهم اللعنة والعذاب إلىٰ يوم الدين!.

ومثلها أيضاً ما حدث لجماعة سبأ، حيث منّ الله عليهم بالخير

العميم ، والرزق الوافر ، والنعم الكثيرة ، والرخاء الممدود . . .

فما كان منهم إلاَّ نسيان المنعم سبحانه والاشتغال بالنعم ، وتفاخروا بذلك إلىٰ درجة الطغيان والظلم ، مصداق ذلك قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٥ ـ ١٩].

أجل! فقد حدّثنا القرآن الكريم عن بعض ما يدور حول الترف وأسبابه ونتائجه ، وجاء التركيز في ذلك علىٰ أنه أحد الأسباب المهمة والخطيرة في تدمير الأفراد والشعوب والأمم، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦ ـ ١٧].

وفي التعليق علىٰ هـٰذه الآيات يقول سيد قطب رحمه الله تعالى: «المترفون في كل أمة هم طبقة الكبراء الناعمين ، الذين يجدون المال ويجدون الخدم ويجدون الراحة، فينعمون بالدّعة وبالراحة وبالسيادة، حتىٰ تترهل نفوسهم وتأسن وترتع في الفسق والمجانة، وتستهتر بالقيم والمقدسات والكرامات ، وتلغَ في الأعراض والحرمات ، وهم إذا لم يجدوا من يضرب علىٰ أيديهم عاثوا في الأرض فساداً ، ونشروا الفاحشة في الأمة وأشاعوها ، وأرخصوا القيم العليا التي لا تعيش الشعوب إلا بها ولها ، ومن ثم تتحلّل الأمة وتسترخي ، وتفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها ، فتهلك وتُطوىٰ صفحاتها ، والآية تقرّر سنّة الله هـٰذه ، فإذا قدّر الله لقريةٍ أنها هالكة ؛ لأنها أخذت

بأسباب الهلاك فكثر فيها ، فعمّ فيها الفسق ، فتحللت وترهلت فحقت عليها سنة الله ، وأصابها الدمار والهلاك ، وهي المسؤولة عمّا يحلّ بها ؛ لأنها لم تضرب على أيدي المترفين ، ولم تصلح من نظامها الذي يسمح بوجود المترفين ، فوجود المترفين ذاته هو السبب الذي من أجله سلطهم الله عليها ففسقوا ، ولو أخذت عليهم الطريق فلم تسمح لهم بالظهور فيها ما استحقت الهلاك ، وما سلط عليها من يفسق فيها ويفسد فيقودها إلىٰ الهلاك .

إن إرادة الله قد خلقت للحياة البشرية نواميس لا تتخلف ، وسنناً لا تتبدل ، وحين توجد الأسباب تتعدد النتائج فتنفذ إرادة الله وتحقّ كلمته ، والله لا يأمر بالفسق ، لأن الله لا يأمر بالفحشاء ، لكن وجود المترفين في ذاته دليل علىٰ أن الأمة قد تخلخل بناؤها ، وسارت في طريق الانحلال ، وأن قدر الله سيصيبها جزاء وفاقاً ، وهي التي تعرّضت لسنّة الله بسماحها للمترفين بالوجود والحياة»[1] .

وفي سورة أخرى يحدّثنا البيان الإلٰهي عن موقف المترفين مع الرسل والرسالات ثم عن أثر الترف في الدول والشعوب ، فيقول الله سبحانه : ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [الزخرف : ٢٣ ـ ٢٥] .

ثانياً: الترف في دولتي فارس والروم:

ولو عدنا إلى التاريخ لرأيناه يتحدث بأفصح اللغات عن أن الترف هو معول هدم للطاقات والقدرات ، مثال ذلك :

---

(١) في ظلال القرآن : ٤/ ٢٢١٧ .

دولتا الفرس والرومان كانتا القوتين العُظميين في غابر الأزمان ، وبلغتا من النعم والترف الشيء الكثير ، وقد ذكر أبو الحسن الندوي طائفة من ذلك ، مثلاً قوله: «استحوذت علىٰ الناس في الدولتين الفارسية والرومية حياة الترف والبذخ، وطغىٰ عليهم بحر المدنية المصطنعة والحياة المزوَّرة، وغرقوا فيه إلىٰ أذقانهم، فكان ملوك فارس والروم وأمراء الدولتين سادرين في غفلتهم، لا همَّ لهم إلا اللّذة والتهام الحياة ، وبذخوا بذخاً عظيماً تخطّىٰ القياس، ودققوا في مرافق المعيشة وفضول المدنية وحواشي الحياة تدقيقاً عظيماً جدّاً، فكان لكسرىٰ أبرويز اثنا عشر ألف امرأة!! وخمسون ألف جواد، وشيء لا يحصىٰ من أدوات الترف والقصور الباذخة، ومظاهر الثروة والنعمة وقد وجد العرب قباباً تركية مملوءة سلالاً مختّمة بالرصاص، قال العرب: فما حسبناها إلا طعاماً ، فإذا هي آنية الذهب والفضة!».

ويتحدث عن الدولة الرومية في بلاد الشام ، فيقول: «. . . وكان الأمراء والأقيال ـ أي: الرؤساء ـ والأغنياء ورجال البيوتات الشريفة ، وأفراد الطبقة الوسطىٰ ، علىٰ آثار الملوك ، يحاولون أن يقلّدوهم في لباسهم وطعامهم ومجالسهم وترفهم ، وكانوا يأخذون أنفسهم بعاداتهم ومناهج حياتهم ، وارتفع مستوىٰ الحياة ارتفاعاً عظيماً ، وتعقّدت المدينة تعقداً عظيماً ، وصار الواحد ينفق علىٰ نفسه وعلى جزء من لباسه ما يشبع قرية أو يكسو قبيلة. . ودرج الناس علىٰ هٰذه المدنية المترفة وعاداتها الفاسدة ، ورضعوا بلبانها ، ونشؤوا عليها. . وشق عليهم أن يتنازلوا إلىٰ الحياة الطبيعية البسيطة حتىٰ في ساعة عصيبة ، وفي فقرٍ واضطرار ، ذكروا أن يزدجرد آخر ملوك فارس لما فرّ من المدائن أخذ معه ألف طاهٍ ، وألف مغنٍّ ، وألف قيّم للنمور ، وألف قيّم للبُزاة ـ أي: للصقور ـ. . . وآخرين، وكان يستقل هذا العدد! . . واستسقىٰ الهرمزان ملك الأهواز أمام عمر رضي الله عنه ،

فأتي له بالماء في قدح غليظ ، فقال: لو متُّ عطشاً لم أستطع أن أشرب في مثل هـٰذا ، فأتي له به في إناءٍ يرضاه!!»[1].

ثالثاً: الترف في دولة الأندلس الإسلامية:

ومثلها ما حدث في دولة الأندلس الإسلامية ؛ فقد أنفقوا الأموال الطائلة علىٰ تشييد البنيان ، حتىٰ ارتكبت في سبيل ذلك المظالم ، ومما يؤسف له أن تكون العناية بالحجر أكثر منها بالبشر!!.

لقد بنىٰ عبد الرحمن الداخل مدينة الزهراء ، حيث قسم جباية الدولة إلىٰ ثلاثة أثلاث: ثلث للجند ، وثلث للبناء ، وثلث مدخر ، وقد استنفذت الزهراء ثلث إيراد الدولة لمدة (١٧) سنة ، ولم يتم بناؤها نهائيّاً إلا بعد أربعين سنة ، وانشغل الخليفة وولي عهده بها انشغالاً عظيماً ، وجلب الخليفة لها الرخام من تونس وقرطاجنة في إفريقية ، ثم دارت الأيام فلم تعمر مدينة الزهراء أكثر من ستين عاماً ، حيث ابتدأ الخراب في أيام الفتن التي أصابت آخر الدولة الأموية ، ثم انمحت شيئاً فشيئاً ، حتىٰ صارت اليوم يبحث عنها بوسائل الحفريات الحديثة!!.

إضافة إلىٰ الإسراف في طلب المال وإنفاقه إلىٰ حد كبير مهلك ، وعلىٰ حدّ تعبير الدكتور عبد الحليم عويس: «كان التكالب علىٰ المادة ومظاهر الثراء والبذخ ، هي السمات الغالبة علىٰ الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الأندلس. . وكان هـٰذا النمط من الحياة سبباً من أسباب قيام الفتنة الطائفية التي مزّقت وحدة المسلمين إلىٰ (٢٢) دولة!!».

«وكان الناس يجهّزون بناتهم بمبالغ ضخمة ومظاهر فخمة ، حتىٰ إن المنصور بن أبي عامر قد قصده أحد الوجهاء لطلب مال يجهّز به

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ ص ٧٠ ـ ٧٤.

ابنته ، فملأ ابن أبي عامر حجره بالمال!!.

وكان كثير من الأثرياء في قصورهم معتكفين علىٰ الموسيقىٰ والفتيات الحسان ، وينفقون في سبيل ذلك المبالغ الطائلة ، حتىٰ صارت الأسر الغنية لا تكاد همومها تتجاوز الاهتمام بمجالس الأنس والشراب والزهور والنساء والغلمان»[1].

كل هـٰذا أدّى إلىٰ ضعف الشعب وسقوط المدن الأندلسية ، واحدة تلو أخرىٰ ، ومثلها حدث في دولة بني العباس.

رابعاً: الترف في دولة بني العباس:

فقد كانت دولة فتية قوية في بداياتها وأيام ازدهارها ، لكن لما آل الأمر إلىٰ البذخ والترف، كانت النتيجة الحتمية الضعف والهوان ، إلىٰ درجة السقوط ، خاصة أمام حملات التتار ، مثال ذلك:

عقد الخليفة المأمون (ت: ٢١٨ هـ) علىٰ بوران بنت الحسن بن سهل وزيره ، فكان عرساً لا مثيل له!.

حيث جرت تلك الحفلة في منازل الحسن بن سهل السرخسي ، التي كانت بفم الصلح بالقرب من مدينة واسط ، وفم الصلح اسم نهر كبير كان فوق واسط ، عليه عدة قرىٰ ، وفيه كانت دار الحسن بن سهل وزير المأمون ، وفيه بنىٰ المأمون ببوران ، تزوجها المأمون لمكانة أبيها عنده ، واسمها الحقيقي خديجة ، وبوران لقبها ، احتفل أبوها وعمل من الولائم والأفراح ما لم يعهد مثله في عصر من عصور الجاهلية والإسلام ، فقد سافر المأمون وحاشيته ورجال دولته من القوّاد والكتاب والوجوه إلىٰ فم الصلح ، فنثر الحسن بن سهل بنادق المسك علىٰ رؤوسهم ، فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوارٍ وصفات

---

(١) التكاثر المادي وأثره في سقوط الأندلس ، ص ٢١١ ـ ٢١٤.

دواب وغير ذلك ، فكانت البندقة إذا وقعت في يد الرجل فتحها ، فيقرأ ما في الرقعة ، فإذا علم ما في الرقعة مضىٰ إلىٰ الوكيل المرصد لذلك ، فيدفعها إليه ويتسلّم ما فيها ، سواء كان ضيعة ، أو ملكاً آخر ، أو فرساً ، أو جارية ، أو مملوكاً . . . ثم نثر بعد ذلك علىٰ سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر ، وأنفق علىٰ المأمون وقواده وجميع أصحابه وسائر من كان معه من أجناده وأتباعه ، وكانوا خلقاً لا يُحصىٰ ، حتىٰ علىٰ الجمالين والمكارية والملاحين وكل من ضمه عسكره ، ولم يكن في العسكر من يشتري لنفسه ولا لدوابه! .

وذكر الطبري أن المأمون أقام عند الحسن تسعة عشر يوماً ، يعدُّ له في كل يوم ولجميع من معه ما يحتاج إليه ، وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين ألف ألف درهم! . . وفرش الحسن للمأمون حصيراً منسوجاً بالذهب ، فلما وقف عليه نثرت علىٰ قدميه لآلئ كثيرة! .

وقال الطبري أيضاً: دخل المأمون علىٰ بوران الليلة الثالثة من وصوله إلىٰ فم الصلح ، فلما جلس معها نثرت عليها جدتها ألف درّة كانت في صينية ذهب ، فأمر المأمون أن تجمع ، وسألها عن عدد الدرّ: كم؟ فقالت: ألف حبة ، فوضعها في حجرها وقال لها: هٰذه نِحْلَتُكِ ـ أي: عطيتك ـ ، وسلي حوائجك ، فقالت لها جدتها: كلمي سيدك فقد أمرك .

فسألته الرضا عن إبراهيم بن المهدي ؛ عمه ، والسماح بالحج لأم جعفر ، وهي الست زبيدة ، فقال: قد فعلت ، فألبستها أم جعفر البدلة اللؤلؤية ، وأوقدوا في تلك الليلة شمعة عنبر وزنها أربعون مَنّاً في تَوْر من ذهب ـ أي: في إناء من ذهب ـ فأنكر المأمون ذلك عليهم ، وقال: هٰذا إسراف!! .

وقد كانت حياة العباسيين مليئة بالترف والإخلاد إلىٰ الأرض ، والرضا بمباهجها ، والتوسع في ذلك توسعاً عظيماً ، إذ بنوا بغداد علىٰ هيئة عظيمة ، وتوسّعوا في بناء القصور ذات الأواوين الضخمة ، وتفننوا في البناء والزينة ، والزخارف والنقوش ، والستائر والبسط والأثاث ، والتماثيل والتحف والأواني ، وفي الطعام والشراب ، كما تأنقوا في الجواهر والزينة والطيب والملبس والثياب ، متأثرين بالأزياء الفارسية ، واهتموا بأدوات الترويح واللعب: كسباق الخيل ، وسباق الحمام الزاجل ، ولعبة الصولجان ، والشطرنج ، والنرد ، والصيد بالبزاة والصقور والشواهين ، والكلاب والفهود ، وهـٰذا يدل علىٰ الترف والبذخ الذي كان يتمتع به الخلفاء وأبناء البيت العباسي ، والوزراء والقواد وكبار رجال الدولة ، والتجار ، وبعض الشعراء ، والكتاب والمغنين ، والعلماء . . ! .

خامساً: عهود الترف في العالم العربي:

أجل! لقد أتىٰ علىٰ العالم العربي عهدٌ في التاريخ كانت الحياة فيه تدور حول فردٍ واحد ، وهو شخص الخليفة أو الملك ، وحوله حفنة من الرجال هم الوزراء وأبناء الملك ، وكانت البلاد تعتبر ملكاً شخصيّاً لذلك الفرد السعيد، والأمة كلها فوجاً من المماليك والعبيد ، ويستحكم في أموالهم وأملاكهم ونفوسهم وأعراضهم ، ولم تكن الأمة التي كان يحكم عليها إلاّ ظلاًّ لشخصه ، ولم تكن حياتها إلا امتداداً لحياته .

لقد كانت الحياة تدور حول هـٰذا الفرد بتاريخها وعلومها وآدابها وشعرها وإنتاجها ، كذلك تضمحلّ هـٰذه الأمة في شخص هـٰذا الفرد ، تذوب فيه ، وتصبح أمة هزيلة لا شخصية لها ولا إرادة ، ولا حرية لها ولا كرامة .

وكان هـٰذا الفرد هو الذي تدور لأجله عجلة الحياة ، فلأجله يتعب الفلاح ، ويشتغل التاجر ، ويجتهد الصانع ، ويؤلف المؤلف ، وينظم الشاعر ، ولأجله تلد الأمهات ، وفي سبيله يموت الرجال ، وتقاتل الجيوش ، بل ولأجله تلفظ الأرض خزائنها ، ويقذف البحر نفائسه ، وتستخرج كنوز الأرض خيراتها!![1].

سادساً: الترف في الدول الغربية:

هكـذا فعل الترف في الشعوب والأمم السابقة ، فماذا يفعل بها اليوم؟ لقد وصلت بعض الدول الغربية كفرنسا في الترف إلىٰ حدّ عجيب ، مما جعل كبار المصلحين عندهم ينادون ويحذرون من الخطر القادم جرّاء شبح الترف ، مثال ذلك كتاب (مغرب الغرب) للعالم الألماني (شبلنجر) ، والذي قال فيه: «إن الحضارة المادية التي أُترف فيها الناس ، والتي كانت سبباً في تقدم أوروبة وأمريكا علىٰ غيرهما من الشعوب هي سبب أفول نجم هـٰذه الشعوب».

ويؤكد علىٰ فكرة مهمة ملخصها: «لا علم بغير دين ، ولا فضيلة بغير دين ، ولا بقاء للسلطة بغير دين ، والدين لا يجيز هـٰذا الترف والفساد الذي نعيش فيه».

ولعمري ، لكأن هـٰذا الفيلسوف الألماني يشرح قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

أو لكأنه يرتل قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم

---

(١) للتوسع يراجع: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ ص ٢٨٨ ـ ٢٩٥.

مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٤ ـ ٤٥].

سابعاً: نموذج من الترف الحديث:

حتىٰ العالم العربي والإسلامي فقد سقط قسم كبير من الأفراد في مستنقعات البذخ والترف! . . وأخلدوا إلىٰ الأرض ، وساروا وراء النمط الاستهلاكي ، وتباهوا بالأعراس والأتراح ، وفي ذلك يقول الإمام محمد أبو زهرة رحمه الله :

«ولننظر في حالنا نجد أن البلاد الإسلامية أو العربية أو البلاد المصرية علىٰ وجه الخصوص تنقسم إلىٰ قسمين :

١ ـ قسم يعيش علىٰ ملء بطنه إن وجد ما يملؤها ، وعلىٰ ستر عورته إن وجد ما يسترها ، وهـٰذا هو الكثرة الكاثرة.

٢ ـ وقسم يعيش في ترفٍ يُذهب كل معنى من معاني الرجولة ، وهؤلاء إذا استمرّوا مسيطرين علىٰ الرأي العام الفكري فبشّر مصر والعرب بالخراب المستعجل! ونرجو ألا يكون.

إننا نجد الآن دور الملاهي والصحف والمجلات ـ إذا استثنينا المجلات الإسلامية المحدودة النشر ، والتي لا يقرؤها إلا من يتمسّك بدينه ، ولا ينتفع بها غيره ـ نجد تلك الدور كلها تصوّر حياة المترفين ، وكذلك الروايات السينمائية نجدها تمثل قصوراً لقومٍ يتنعّمون بأبلغ أنواع التنعّم ، ثم نجد معانيها كلها تتجه إلىٰ اللذات وإلىٰ الشهوات وإلى الإسراف فيها ، ولا تجد فيها إلا مناظر السكارىٰ والراقصين والراقصات ، فإذا أردنا أن نعرف مجتمعنا من دور السينما ومن الأفلام نرىٰ أنه لاهٍ لاعب عابث ، ثم إن تلك المناظر تقتل النخوة وتثير في الشباب الرغبة الملحّة في أن يكونوا كأبطال السينما يطلبون الهوىٰ والترف واللذة.

ولننتقل إلىٰ الصحف فنرىٰ كل صحيفة تنقل أخبار المترفين وأوصاف الملاذ والشهوات عن أمريكا وعن فرنسا وعن إنجلترا ، وكذلك أنباء المطربين والمطربات وما هم عليه من ترف ، فكأننا في جو يدعو إلىٰ الترف ، مع وجود الحرمان المطلق!!.

لذلك نخشىٰ علىٰ أنفسنا ، ونخشىٰ علىٰ مصر والعرب أنه إذا استمرّت تلك الدور تؤدي دورها ، فالويل ثم الثبور والهلاك للأمة العربية ، وهو هلاك لا قِبَل لها باحتماله ، لأن الترف كان فيما مضىٰ محصوراً في طبقات معينة ، ولم يكن معلناً في كل مكان ، وكان يستتر استتاراً ، لأن الأمة العربية كانت في شكيمتها وفي عزّها وفي قوتها لا تخنع ولا تذل ، إذا اختبرت أبلت بلاءً حسناً في اختبارها ، أما إذا ساد الأمر الآن فإننا نخشىٰ على الأمة كل الخشية ، وخصوصاً إن علمنا أن التلفزيون سيرسل إلى بلاد الفلاحين ، وأنه يراد أن يكون في كل جمعية تعاونية تلفزيون ، ليرفّه عن الأهلين ، وليروا فيه ترف المفسدين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[1].

ولعل في كلام الإمام تفسيراً لقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٣ـ٤١].

---

(١) مجلة لواء الإسلام، عدد (٦)، ص ٣٨٨.

ثامناً: حديث ابن خلدون عن الترف:

وأما العلامة ابن خلدون (ت: ٨٠٨ هـ) فقد تحدث عن الترف وآثاره بشكل تفصيلي تحليلي ، مثال ذلك قوله: «الترف والنعمة إذا حصلا لأهل العمران دعاهم بطبعه إلىٰ مذاهب الحضارة والتخلّق بعوائدها ، والحضارة كما علمت هي التفنن في الترف ، واستجادة أحواله ، والكَلَف ـ أي التعلّق ـ بالصنائع التي تؤنّق من أصنافه وسائر فنونه ، من الصنائع المهيئة للمطابخ أو الملابس أو المباني أو الفُرش أو الآنية ، ولسائر أحوال المنزل ، وللتأنق في كل واحد من هـٰذه صنائع كثيرة لا يُحتاج إليها عند البداوة وعدم التأنّق فيها.

وإذا بلغ التأنق في هـٰذه الأحوال المنزلية الغاية تبعه طاعة الشهوات ، فتتلوّن النفس من تلك العوائد ـ أي: العادات ـ بألوان كثيرة ، لا يستقيم حالها معها في دينها ولا دنياها ، أما دينها فلاستحكام صبغة العوائد التي يعسر نزعها ، وأما دنياها فلكثرة الحاجات والمؤونات التي تطالب بها العوائد ويُعجز ويُنكب ـ أي: ويُنصرف ـ عن الوفاء بها».

ثم يقول: «إن الأخلاق الحاصلة من الحضارة والترف هي عين الفساد ، لأن الإنسان إنما هو إنسان باقتداره علىٰ جلب منافعه ، ودفع مضاره ، واستقامة خلقه للسعي في ذلك ، والحضري لا يقدر علىٰ مباشرة حاجاته ، إما عجزاً لما حصل له من الدّعة ، أو ترفّعاً لما حصل له من المربىٰ في النعيم والترف ، وكلا الأمرين ذميم. ثم هو فاسد أيضاً ـ غالباً ـ بما فسدت منه العوائد وطاعتها ، وما تلونت به النفوس من مكانتها كما قررناه ، إلا في الأقلّ النادر ، وإذا فسد

الإنسان في قدرته علىٰ أخلاقه ودينه فقد فسدت إنسانيته ، وصار مسخاً علىٰ الحقيقة»[1].

تاسعاً: آثار الترف وصوره:

إذن: للترف آثار كثيرة ومتنوعة ، أهمها: الغفلة عن الآخرة والانغماس في أمور الدنيا ، والتعلّق بملذات الدنيا ونسيان الهدف ، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

وكثيرة هي صور تعلّق الإنسان بملذات الدنيا ، أهمها:

١ ـ **التوسّع في المآكل والمشارب**: علماً أن النبي ﷺ قال محذّراً من شبع المترفين: «**ما ملأ آدميّ وعاء شرّاً من بطنه ، بحسب ابن آدم أكلات يُقمن صلبه ، فإن كان لا محالة ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه**» [سنن الترمذي: (٢٣٨١)].

ورضي الله عن عمر عندما حذّر من ذلك ، فقال: إياكم والبطنة في الطعام والشراب ، فإنها مفسدة للجسد ، مورثة للسقم ، مكسلة عن الصلاة ، وعليكم بالقصد فيهما ؛ فإنه أصلح للجسد ، وأبعد من السّرف ، وإن الله تعالىٰ ليُبغض الحبر السمين ، وإن الرجل لن يهلك حتىٰ يؤثر شهوته علىٰ دينه[2].

٢ ـ **التوسع في النوم**: لأن ذلك يؤدي إلى مضيعة الوقت ، بينما رأس مال الإنسان الحقيقي هو الوقت ، ورحم الله العلماء عندما كانوا

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، ص ٣٧٢ ـ ٣٧٤.

(٢) كنز العمال ، للمتقي الهندي: ١٥/ ٤٣٣.

يتعبون ويسهرون ويغالبون النوم في سبيل العلم[1].

مثال ذلك: ما ورد في ترجمة الإمام مالك رحمه الله: كان يصلّي الفجر بوضوء العشاء نصف قرن ـ خمسين سنة ـ!.. وهو أمر عجيب غريب، لا يقدر عليه إلا آحاد من الناس علىٰ مرّ القرون!![2].

وأما الإمام محمد بن الحسن الشيباني رحمه الله، فقد كان يجزّئ الليل ثلاثة أجزاء: جزء للنوم، وجزء للصلاة، وجزء للدرس، وكان كثير السهر، فقيل له: لمَ لا تنام؟ قال: كيف أنام وقد نامت عيون المسلمين تعويلاً علينا، وهم يقولون: إذا وقع لنا أمر رفعناه إليه، فيكشفه لنا، فإذا نمنا ففيه تضييع للدين![3].

٣ ـ **حبّ التكثّر من المال**: بحيث يجرّه المال إلى ما لا تُحمد عقباه، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦ ـ ٧].

وقوله سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ [الهمزة: ١ ـ ٣].

وقد ورد في «صحيح مسلم»: قوله ﷺ: «**إن المكثرين هم المقلّون يوم القيامة؛ إلا من أعطاه الله خيراً فنفح فيه بيمينه وشماله، وبين يديه ووراءه، وعمل فيه خيراً**».

وهـٰذا عينه الذي ساق الكافرين المترفين إلىٰ الكفر بالدعوة الإسلامية، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ۝٢٣ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ

---

(١) للتوسع يراجع: تضحيات في سبيل العلم، للمؤلف، ص ١٥٧ ـ ١٦٩.
(٢) ترتيب المدارك، للقاضي عياض: ٣/ ٢٥٠.
(٣) صلاح الأمة في علو الهمة، الدكتور سيد العفاني: ١/ ٢١٨.

جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣ ـ ٢٤].

٤ ـ التوسّع في المركوب والمسكن والملبس: وهي في الأصل من المباحاة، دليل ذلك قول المصطفى ﷺ: «**من سعادة ابن آدم ثلاثة، ومن شقاوة ابن آدم ثلاثة، من سعادة ابن آدم: المرأة الصالحة، والمسكن الصالح، والمركب الصالح، ومن شقاوة ابن آدم: المرأة السّوء، والمسكن السوء، والمركب السوء**»[1].

لكن المشكلة أن يتحوّل المباح إلىٰ التفاخر والتعالي علىٰ الناس من خلاله، وإلى أن يأخذ قسطاً من الوقت للحديث عن ميزاته، بل وقد يصل الإنسان إلىٰ عبادته من دون الله، مصداق ذلك قوله ﷺ: «**تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، والقطيفة، والخميصة، إن أُعطي رضي، وإن لم يُعط لم يرض**» [صحيح البخاري: (٦٠)].

٥ ـ التوسّع في النكاح: حيث البذخ والتبذير في حفلة العرس، وفي المهر، وفي الموائد ونحو ذلك!.

٦ ـ يضاف إلى آثار الترف أيضاً: التباطؤ في قضاء الأمور، والدّعة والكسل، وضعف الجسد وخور العزيمة، وتعاطي بعض المعاصي والإصرار عليها، وحبّ الحياة وكراهية الموت، وضعف الجانب التربوي، وضعف الجانب الإيماني... إلخ.

وقد حذرنا المصطفى ﷺ من ذلك كله، مثال ذلك ما أخرجه البخاري: عن أنس رضي الله عنه، قال: كان النبي صلوات الله عليه يقول: «**اللهم، إني أعوذ بك من الهمّ والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل**».

---

(١) مجمع الزوائد، للهيثمي: ٤/ ٢٧٥.

مثال آخر أخرجه أبو داود وأحمد: أن النبي ﷺ، قال: «**يوشك أن تداعىٰ عليكم الأمم من كل أفق كما تداعىٰ الأكلة إلىٰ قصعتها**».

قلنا: يا رسول الله، أمن قلّة بنا يومئذٍ؟.

قال: «**أنتم يومئذٍ كثير، ولكن تكونون غثاء كغثاء السّيل، ينتزع المهابة من قلوب عدوكم، ويجعل في قلوبكم الوهن**».

قلنا: وما الوهن؟.

قال: «**حبّ الدنيا، وكراهية الموت**»[1].

ورحم الله الإمام محمد أبو زهرة عندما قال: «الترف يُذهب النخوة، ويضعف قوة النفس، ويجعل الإنسان ضعيفاً مستكيناً عبداً لشهوته، وما أذلّ الأمم شيء كالترف، وما ذهب بقوة الأمم شيء كالترف».

وقال: «والتتار عندما جاؤوا منحدرين من أعلىٰ الصين كالصخرة، لا تلوي على شيء إلا أخذته، كانوا خشنين، حفاةً غلاظاً، والمسلمون في ذلك الوقت كانوا يعيشون بين الجواري، بل كانوا قد تناولوا المحرمات واستباحوا الخمور ـ طبعاً ليس كل المسلمين، بل غالبيتهم وللأسف ـ فانساب التتار في أرض المسلمين.

حتىٰ إن الحافظ ابن كثير يقول: إنهم ما كانوا في فتحهم إلا علىٰ مقدار سيرهم، فبمقدار سرعة السير كانت سرعة الفتح، إذ لم يعوقوا، لأن المسلمين كانوا قد أصابهم الترف، حتىٰ إذا أحس المسلمون بالويلات واخشوشنوا، وباعدوا الترف، وكان التتار قد

---

(١) صحيح سنن أبي داود: ٣/ ٨١٠.

ذاقوا الترف ، عندئذٍ التقت بهم جيوش الشام ومصر فأعملت السيوف في أقفيتهم!»[1].

كل هـٰذه القصص والحكايات تفسّر قوله تعالى وهو يتحدث عن آثار الترف في الأفـراد والأمم والجماعات: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدۡ كَانَتۡ ءَايَـٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَـٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَـٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٤ ـ ٦٧].

﴿أَخَذۡنَا﴾: الأخذ هو الاستيلاء بعنف علىٰ شيء هو لا يحبّ أن تستولي عليه ، والأخذ يُوحي بالعنف والشدة ، بحيث لا يستطيع المأخوذ الإفلات مهما حاول.

والكلام هنا عن كفار قريش ، حيث لما رآهم النبي ﷺ أُترفوا بالنعمة وطغوا بها قال: «**اللهم، اشدُدْ وطأتك على مُضر، واجعلها عليهم سنين كَسِنيّ يوسف**» [صحيح البخاري: (١٠٠٦)].

فأخذهم الله حال ترفهم بالقحْط والسّنين، فراحوا يصرخون ويضجّون، ويأتيهم الجواب من رب الأرباب: ﴿لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ لأن من يجأر ينادي من ينصره وأنتم لن تُنصروا ، وذلك لأنني أنصر أوليائي ، وأنصر رسلي ، وأنصر من ينصرني.

* * *

(١) مجلة لواء الإسلام ، عدد (٦) ، ص ٣٨٨.

الفصل الرابع

انتشار الفساد ، وكثرة المفسدين!!

أولاً: معنى الفساد:

في اللغة: فسد، كنصر وعقد وكرم، فساداً وفسوداً، ضد صَلُح ، فهو فاسد وفسيد ، والفساد: أخذ المال ظلماً ، والمفسدة: ضد المصلحة. .[1].

وفي الاصطلاح: هو خروج الشيء عن الاعتدال ، قليلاً كان الخروج عنه أو كثيراً ، ويضادّه الصلاح ، ويستعمل ذلك في النفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة[2] ، وفي القرآن الكريم ذكر لمسألة الفساد ، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

وقوله: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

ويضرب القرآن نماذج للمفسدين ، فهناك من أفسدهم المال ، وهناك من أطغاهم المنصب. . . وهكذا ، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

---

(١) القاموس المحيط ، الفيروز آبادي ، ص ٣٠٦.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن ، الراغب الأصفهاني ، ص ٦٣٦ .

ثانياً: أهم أشكال الفساد في العالم الإسلامي:

ومن أهم أشكال الفساد في العالم ـ نماذج من الدول الإسلامية ـ ما يلي:

١ ـ التبعية والتقليد:

وصف ابن خلدون ذلك بقوله: «إن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب، في شعاره وزيّه ونحلته، وسائر أحواله وعوائله».

وبالتالي وصلنا إلىٰ مرحلة التغريب وقابليتنا للتغريب، بحيث اتسعت الفجوة بين الفكر والتطبيق، وهـٰذا لا يسود إلاَّ أثناء فترات الانحطاط الحضاري، ولذلك سُحقت شخصيتنا الإسلامية، واتجهنا نحو محاكاة نمط الغرب أو الشرق! والمؤسف أن ذلك كان واضحاً في ظواهر طرد الثقافة الإسلامية التي تناسب أوضاعنا، وإحلال الثقافة الغربية محلها، حتىٰ لو كانت تخالف معتقداتنا وسلوكنا وعاداتنا وأخلاقياتنا..

٢ ـ العدوىٰ في الفساد:

بحيث بدأت نتائج العولمة تظهر للعيان، ومنها: فقدان السلع المادية هويتها الوطنية، لكن الأمر المخيف حقّاً هو انتقال الفساد من بلاد الغرب عن طريق العدوىٰ إلىٰ بلاد المسلمين!.

وهكـذا، فالفساد العالمي الذي أحدثته الأوضاع والمخططات انعكس علىٰ واقع العالم الإسلامي، وأثّر فيه تأثيراً كبيراً.

٣ ـ الأثرة الفاحشة:

وهي تؤدي إلىٰ فتح كل أبواب الفساد، وأبرز مظاهره الواضحة فساد الأخلاق، بحيث يستهلك الأغنياء الفوائض المالية في الملاهي وعلىٰ الملذات، بينما يعيش الفقراء تحت وطأة الموت أو ما يقرب منه!.

وهكـذا تزداد الفجوة بين الفقراء والأغنياء ، فيزداد الفقراء فقراً وديوناً ، وتنمو المشاكل ـ وخاصة الاقتصادية منها ـ نموّاً سرطانيّاً ، ويلعب الأغنياء ـ عن طريق التلاعب بالأسعار والاحتكار ـ لعبة المصيدة الجهنمية ، والتي لا يستطيع الخروج من أتونها إلا من رحم ربك! .

مثال ذلك: أن الكلاب المدلّلة في البلاد الغنية تستهلك ربع الإنتاج العالمي من الحبوب ، أي: ما يقارب استهلاك جميع سكان الهند والصين!! .

وكما قال (رجاء جارودي): «إن من العار أن تسمع المؤتمر السكاني ـ الديموغرافي ـ في (بوخارست) يقول: إن إنجاب أقل عدد ممكن من الأطفال يجنّب العالم مشاكل الجوع ، في الوقت الذي نعرف جيداً أن فلاحاً باكستانيّاً أو هنديّاً يستهلك أقل مما يستهلكه زميله الأمريكي في كاليفورنيا بأربعمئة مرة!!» .

٤ ـ التخلف العلمي:

ففي بلاد المسلمين تزداد الأمّية انتشاراً ، بحيث تقارب النسبة (٦٢٪) إضافة إلىٰ التخلف في التصنيع والتقنيات والاختراعات ، وما إلى هنالك[1] .

ثالثاً: الفساد أحد أسباب هلاك الأمم:

أجل! وردت في القرآن الكريم بعض الآيات التي تدلّ علىٰ أن أحد أسباب هلاك الأمم إنما هو انتشار الفساد والمفسدين ، وعدم وجود من يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر ، مصداق ذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ

---

(١) للتوسّع يراجع: ظاهرة العولمة الاقتصادية ، للمؤلف ، ص ٦٨ ـ ٧٩ .

رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٦ ـ ١١٧].

والحقُّ سبحانه يرشدنا إلىٰ أن بقية الأشياء هي التي ثبتت أمام أحداث الزمن ، فأحداث الزمن تأتي لتطوّح بالشيء التافه أولاً ، ثم بما دونه ، ثم بما دونه ، ويبقىٰ الشيء القوي ؛ لأنه ثابت علىٰ أحداث الزمن . . وبقية الأشياء دائماً خيرها .

والحق سبحانه قد بيّن لنا أنه قد أهلك الأمم التي سبقت ، لأنه لم توجد فئة منهم تنهىٰ عن الفساد في الأرض ، وجاء الإهلاك لامتناع من يقاوم الفساد بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

وضرب الحق سبحانه لنا المثل بالبقية في كل شيء ، وأنها هي التي تبقىٰ أمام الأحداث ، ففي قصة شعيب عليه السلام يقول الحق سبحانه : ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٨٤ ـ ٨٦].

ومعنىٰ ذلك أن نقص المكيال أو الميزان قد يزيد التاجر ما عنده ، ولكنه لا يلتفت إلىٰ ما هو مدخور .

ويلفتنا القرآن الكريم إلىٰ المنظور ، وإلىٰ المدخور ، فيقول الحق سبحانه : ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا . . .﴾ [الكهف: ٤٦].

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ . . .﴾ أي : لولا أن كان في الناس بقية من الخير ، وبقية من الإيمان ، وبقية من اليقين ، وكانوا ينهون عن الفساد في الأرض ، لولاهم لخسف الله الأرض بمن عليها .

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ وقد أنجىٰ الحق سبحانه بعضاً ممن نهوا عن الفساد في الأرض ، ونرىٰ أمثلة علىٰ ذلك في القرية التي كانت

حاضرة البحر ، وكانت تأتيهم حيتانهم بارزة واضحة في الماء ، وذلك في يوم السبت الذي حرموا فيه الصيد علىٰ أنفسهم ، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ، آيتا سورة الأعراف: ١٦٤ ـ ١٦٥ .

وهكـذا أنجىٰ الله سبحانه الذين نهوا عن السوء في تلك القرية .

وقد نرىٰ في بعض المجتمعات عنصرين :

الأول: أنه لا توجد طائفة تنهىٰ عن الفساد .

الثاني: أن ينفتح علىٰ المجتمع باب الترف علىٰ مصراعيه ، وفي انفتاحه مذلّة للبشر ، لأنك قد تجد إنساناً لا تترفه إمكاناته ، فيزيد هـٰذه الإمكانات بالرشوة والسرقة والغصب ، وكل ذلك إنما ينشأ ؛ لأن الإنسان يرىٰ مترفين يتنعّمون بنعيم لا تؤهّله إمكاناته أن يتنعّم به[1] .

وفي آية ثانية يبيّن الحق سبحانه أن أحد أهم أسباب إهلاك الأمم هو الفساد والظلم ، قال تعالىٰ: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَـٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَـٰهُمْ حَصِيدًا خَـٰمِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١١ ـ ١٥].

وفي آية ثالثـة يؤكّد الحق سبحانـه علىٰ أن كثيراً من بني إسرائيل لعنهم الله بسبب تركهـم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والانغماس في الفساد ، قال تعالىٰ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨ ـ ٧٩].

---

(١) باختصار من: تفسير الشعراوي: ١١/ ٦٧٣٥ ـ ٦٧٣٦ .

رابعاً: أدوات الفساد:

أما أدوات الفساد فهي كثيرة ، مثل: اللعب بالموازين ، والظلم ، والمغالاة ، والتعدي ، والغش ، والتدليس ، والخيانة ، والميسر ، والقمار ، والكذب . . . وما إلىٰ هنالك.

خامساً: الآثار الوخيمة للفساد:

وأما الآثار الوخيمة للفساد، فأيضاً كثيرة ، منها ما يؤثر علىٰ الأفراد؛ كالبطالة والجريمة والتكاسل، ومنها ما يؤثر علىٰ المجتمعات ؛ كفساد الأسواق ، وتخبط الأسعار ، والكسب الحرام ، والاحتكار ، وغسيل الأموال . . . وما إلىٰ هنالك[1].

سادساً: الحلول المقترحة لمحاربة الفساد:

وأما الحلول المقترحة لمحاربة الفساد ، فكثيرة ، منها: الرقابة الصارمة، والقضاء النزيه، والإعلام الحرّ، وانتشار الفضائل، والأخلاق الحميدة، ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب، وتأمين الضرورات والحاجيات للفرد. . والأهم من ذلك أن نتبنّىٰ الإسلام كله. . أما الحلول الجزئية والترقيع فذاك يزيد الطين بلّة ، وإلا كيف ينجح خطباء المساجد مثلاً في القضاء علىٰ الفساد، بينما تبث وسائل الإعلام مسلسلات تصوّر المرتشي وغيره من الفاسدين بطلاً أسطورياً؟! .

قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

* * *

---

(١) للتوسّع يراجع: غسيل الأموال جريمة بيضاء لكنها خطيرة جداً ، للمؤلف ، ص ١٨٨ ـ ٢٠٠.

الباب الثالث

مَا أَكْثَرَ العِبَرَ.. وَمَا أَقَلَّ المُعْتَبِرِيْنَ!

الفصل الأول: ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

الفصل الثاني: ﴿ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴾.

الفصل الثالث: ﴿ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴾.

* * *

الفصل الأول

﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

يرسم البيان الإلٰهي خطوطاً عريضة ، فيها من العبر والعظات الشيء الكثير ، من ذلك قوله تعالىٰ وهو يتحدث عن مصارع الأمم: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [المرسلات: ١٥ ـ ١٨].

إضافة إلىٰ ذلك ، فقد حضّ القرآن الناس علىٰ السير في الأرض من أجل أن يشاهدوا بقايا الأمم التي أهلكها الله سبحانه، ولينظروا إلى آثارهم ، وليعتبروا مما حدث، ففي ذلك قضايا تنطق بأفصح لسان على أن القوة التي دمّرت أولئكم الناس قادرة علىٰ تدمير وإهلاك كل من طغىٰ وبغىٰ وتجبّر، وفي كل زمان وأيّ مكان! . ونضرب أمثلة لذلك:

أولاً: قصة الطاغية فرعون:

في قصة الطاغية فرعون ، وكيف أنه ادّعىٰ الربوبية وما جرىٰ بينه وبين كليم الله موسىٰ عليه السلام ، وكيف قاده جنونه وكبرياؤه إلىٰ عدم استخدام العقل لمحاولة حلّ المشكلة ، وكيف وصل الحال به إلىٰ أن قاد جيشاً جرّاراً للقضاء علىٰ موسىٰ عليه السلام ومن معه ، حتى حين أمر موسىٰ البحر فانشق بإذن الله دجّل فرعون على الناس وادّعىٰ أنه هو الذي فعل ذلك! . . وكيف تبع فرعون موسىٰ عليه السلام في البحر وكيف تمّ إغراقه ، ثم كيف نجّىٰ الله جسده ليكون فيه العبر والعظات لمن سيأتي من بعده ، وجسده حتىٰ الآن موجود في أحد متاحف مصر! مصداق ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ

ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٩٠ ـ ٩٢].

ثانياً: قارون طاغية المال:

وفي سورة أخرى يأتي الحديث عن طاغية المال قارون ، وكيف كان ماضيه مع نبي الله موسى عليه السلام ، ثم كيف أطغاه المال وجعله متكبّراً متجبراً ، وأصبح يستعلي علىٰ الناس بما وهبه الله من مال وفير ، وادّعىٰ أن ذلك لم يكن ليصير لولا شطارته وذكاؤه وعبقريته! وكيف جاء إليه الناس يطلبون منه المساعدة ، فرفض وجحد المنعم سبحانه ، وكيف آلت إليه العاقبة الوخيمة؛ قال الله تعالىٰ في سياق القصة: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨١ ـ ٨٣].

وفي سورة أخرىٰ يأتي التوجيه إلىٰ خاتم الأنبياء محمد ﷺ ليقول له: لئن كذبك قومك فالأنبياء من قبلك كذّبوا ، فأنت لست وحدك في هٰذا الطريق، وكما أهلك الله أولئك الأقوام، كذلك فإنه سبحانه سيهلك كل من يقف في وجه الدعوة ، مصداق ذلك قوله سبحانه: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ

قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٢ ـ ٤٦].

ثالثاً: أصحاب القرية:

وفي سورة يسّ حديث عن الشاب الذي أسلم وأخفىٰ إسلامه خوفاً من المحيطين به، ولما أرسل الله بعض المرسلين إلىٰ أصحاب القرية، فدعوهم إلىٰ التوحيد، فقابلوا ذلك بالتكذيب، عندئذٍ تدخّل الشاب المؤمن وراح ينصحهم، لكن دون أدنىٰ فائدة، فما كان منهم إلا قتله فأدخله الله جنته، ولما رأى ما فيها تمنىٰ لو أن كل فردٍ من قومه علم ذلك لسجد بين يدي الله سبحانه، ثم تساءل الشاب متحسّراً علىٰ المعاندين والمتكبرين؛ قال الله تعالىٰ في سياق القصة: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يسّ: ٣٠ ـ ٣٢].

رابعاً: ترك بقايا وآثار المُهْلَكين للعبرة:

وهكـذا، يُعيد القرآن ويؤكد مرة تلو مرة علىٰ وجوب السّير في الأرض، والنظر إلىٰ بقايا المهلكين، وذلك من باب العبر والمواعظ، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٣ ـ ١٤].

وفي سورة أخرى يقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ﴾ [يوسف: ١٠٩ ـ ١١١].

ويؤكد البيان الإلٰهي هـٰذا المعنىٰ مرة أخرىٰ، فيقول الله تعالىٰ:

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الروم: ٩ ـ ١٠].

ومثلها قول الله تعالىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾ [فاطر: ٤٤ ـ ٤٥].

ومثلها الكثير من الآيات التي يوضح الله تعالى فيها الخط العريض في إهلاك الأمم، وأنه لحكمةٍ إلٰهية معينة يترك الله بعض آثارهم، وذلك كي يتعظ الناس ويعتبروا بمن سبقهم، وهٰذه حقيقة يلمسها الإنسان عندما يقف علىٰ آثار مدينة تدمر.. ومدينة بصرىٰ في سورية، إضافة إلىٰ الحصون والقلاع، ومثلها مدينة بعلبك في لبنان، ومدينة البتراء في الأردن، والآثار العظيمة في مصر كالأهرامات ونحوها.

كل تلك الآثار يقف الإنسان مندهشاً من عظمتها، ويتساءل: وأين الذين أشادوا وعمّروا، وزيّنوا وزركشوا، وتفنّنوا و...؟!.. لقد طواهم عالم النسيان ليُصبحوا في متاهات الماضي السحيق، والبقاء لله وحده: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [غافر: ٨٢ ـ ٨٥].

* * *

الفصل الثاني

﴿ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴾

ودار الزمن دورته ، وتعاقبت علىٰ الكرة الأرضية أقوام وشعوب ، وشاء الله تعالىٰ الهداية للبشر ، فأرسل فيهم ومنهم خاتم الأنبياء محمداً ﷺ ، فأسس للدعوة الإسلامية في مكة ، ثم انتقل إلىٰ المدينة المنورة لتصبح دولة إسلامية هي مركز الإشعاع والهداية إلىٰ كل الشعوب وكل العالم.

وبعد انتقاله صلوات الله عليه إلىٰ الرفيق الأعلىٰ ، كانت فترة الخلافة الراشدة ؛ حيث تثبتت أركان الدولة الإسلامية ، خاصة الأمور المالية والاقتصادية ، ثم كانت فترة العهد الأموي ، حيث ازدادت الفتوحات الإسلامية وأصبحت دولة قوية ومتطورة.. وبعدها كانت دولة بني العباس ، وكان الدور الأول فيها هو دور الفتوة والقوة ، لكنها بعدئذٍ امتدت إليها أيادي العابثين والمنشقين والمخرّبين.. والطامة الكبرىٰ الحملات الصليبية علىٰ بلادنا ، وكذلك الحملات الرهيبة التي قادها التتار علىٰ البلاد الإسلامية ، حيث أعادت بلادنا إلىٰ الوراء عدة سنوات.

أولاً: أسباب النكبات:

ولعلّ تلك النكبات المتتالية كان من أهم أسبابها ما يلي:

١ ـ ضعف الوازع الديني.

٢ ـ **التفسخ الأخلاقي**: حيث تفشت المنكرات التي لم يعرفها السابقون في بيوتاتهم وقصورهم ونحو ذلك ، ونتيجة ذلك حتماً هي التدمير والإهلاك ، مصداق ذلك قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

٣ ـ **الانحلال الاجتماعي**.

إذن: كان العالم الإسلامي قبيل الحروب الصليبية تعمه الفوضىٰ والانقسامات، وتهزّه الاضطرابات ، مما أغرىٰ الصليبيين باحتلاله!.

وبالفعل قامت الحملات الصليبية العسكرية ما بين عامي (٤٩٠ ـ ٦٩٠ هـ) ، وذلك تحت حجة استخلاص بيت المقدس من أيدي المسلمين.

ولكن الظلم الذي قام به الصليبيون تجاه العرب والمسلمين لن يمرّ هكـذا ، إنما لا بدّ للقانون الإلٰهي أن يُطبّق عليهم ، ولا بد لسنّة التغيير أن تدور عليهم.

ثانياً: دور صلاح الدين في الأمة:

هيّأ الله للأمة صلاح الدين الأيوبي ، حيث اعتمد بعد الله علىٰ الإعداد الروحي ، ثم الإعداد العسكري ، وقام بالتوحيد قبل المعركة ، وأرسىٰ العدالة الاجتماعية قبل إرساء الحجر ، وأوعز إلىٰ العلماء أن يركزوا علىٰ إشاعة مفهوم الجهاد في سبيل الله وحبّ الشهادة ، مصداق ذلك ما أخرجه الطبراني: أن النبي ﷺ قال: «**طوبىٰ لمن أكثر في الجهاد في سبيل الله من ذكر الله ، فإن له بكل كلمةٍ سبعين**

ألف حسنة ، كل حسنة منها عشرة أضعاف مع الذي له عند الله من المزيد» .

وحمل صلاح الدين لواء الإصلاح ولواء الجهاد ، وكان شجاعاً ومتواضعاً ، وكان يركب جواده وهو مريض ، ويقود جنده ويندفع أمامهم ، فإذا ما طلبوا منه أن يريح نفسه ، قال: إني إنما أشعر بالمرض حين أترك ظهر جوادي! .

وفي حطين تقابل المسلمون والصليبيون ، وأبلىٰ المسلمون بلاءً حسناً ، حتىٰ بلغ عدد القتلىٰ من الصليبيين عشرة آلاف ، ووقع كبار قادتهم أسرىٰ في يد المسلمين! .

إذن: دارت الدائرة علىٰ الظالمين ، من التتار والصليبيين ، وطبّق عليهم قانون الهلاك ، فكانوا عبرة لمن يعتبر ، قال تعالىٰ: ﴿ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۖ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر: ٢١ ـ ٢٢].

* * *

الفصل الثالث

﴿ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴾

أولاً: عاقبة المجرمين (انهيار الاتحاد السوفياتي):

وهكذا بادت أمم وصعدت أمم أخرىٰ ، وكل ذلك من أجل أن يعتبر المعتبرون ، ويتعظوا ويوقنوا بأن لله سبحانه سنناً في الكون لا يُحابي بها أحداً ، حتىٰ إذا وصلنا إلىٰ القرون المتأخرة ، وإذا بدول عظمىٰ تبرز علىٰ الساحة كبريطانيا، وفرنسا، وإيطاليا وغيرها.

وبدل أن تقوم تلك الدول بمساعدة الفقراء والمساكين ، وتساهم في رفع نسب النمو والتنمية في البلاد النامية ، إذا بها تحتل تلك البلاد ، فتسرق الخيرات ، وتسخّر أهلها وتعتبرهم كالعبيد!.

ومثل ذلك حدث في الدولة العظمىٰ: الاتحاد السوفياتي ، حيث فعلت في كثيرٍ من الدول الشرقية ما لا تفعله الوحوش في الغابات ، وفعلت في المقاطعات الإسلامية أكثر من ذلك ، حيث حوّلت غالبية المساجد إلىٰ إصطبلات للخيول ، وبعضها إلىٰ مستودعات لخمرة (الفودكا)!!.

ودار الزمن دورته وإذا بالانهيار المروّع يحدث في تلكم الدول التي تُدعى بالعظمىٰ ، وإذا بالاتحاد السوفياتي العظيم يضطر إلىٰ بيع غالبية أرصدته الذهبية من أجل أن يشتري بها قمحاً لشعبه!.

ثانياً: سيكون مصير أمريكا وإسرائيل الهلاك:

انفردت الولايات المتحدة الأمريكية ومن خلفها إسرائيل بالقطبية العالمية ، والسؤال الملحّ هنا: هل تُطبّق سنن الله ـ وخاصة التبديل ـ في دولة الشيطان الأكبر (أمريكا) ، وفي دولة الغدة السرطانية (إسرائيل) ، وعند ذلك يتحقق الجزء الأخير من الآية ، وهو قوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [المرسلات: ١٨] ؟!.

لقد مرّ معنا أن أهم أسباب هلاك الأمم والحضارات هي: عبادة غير الله ، وتكذيب الرسل ومحاولة قتلهم ، والعتو والاستكبار في الأرض ، وإتيان الفواحش والموبقات ، وهـٰذه أمور بارزة علىٰ السّطح في كلتا الدولتين: أمريكا وإسرائيل!.

والعجيب أن اليهود ومنذ اكتشاف أمريكا ثم استقلالها عن بريطانيا، عمدوا إلىٰ إقامة مجتمع جديد لهم هناك ، ثم عمدوا إلىٰ التركيز علىٰ الإعلام والاقتصاد لتكون لهم اليد القوية في اتخاذ القرار في أمريكا ، وساعدوا في إنشاء عصبة الأمم ثم الأمم المتحدة ، ثم عمدوا إلىٰ إشعال الحرب الأهلية بين أهل الشمال وأهل الجنوب في أمريكا ، وكان الهدف من تلك الحروب إبادة الشعب الأمريكي المسيحي كي يحل محله اليهود ، وبالفعل كانت الهجرة ، من النمسا وغيرها. . ثم نقلوا مراكزهم المالية والإعلامية إلىٰ مدينة نيويورك ، وسيطروا علىٰ صناعة السينما والأفلام والصحافة والسياسة الخارجية والداخلية ، وأقدموا علىٰ احتكار معظم الصناعات الهامة ، مثل: صناعة السكر والقطن وغيرها.

وتدخلوا في أمور البورصة وأسعار الذهب ونحو ذلك.

وبرزت عائلة روتشيلد اليهودية ، حيث لما حضرت الوفاة (أمشيل روتشيلد) جمع أبناءه الذكور الخمسة ، وقرأ عليهم من التلمود ،

وقال لهم: «تذكّروا يا أبنائي أن الأرض جميعها ينبغي أن تكون ملكاً لنا نحن اليهود، وأن غير اليهود حشرات يجب أن لا يملكوا شيئاً»!..

وقام اليهود بتأليف (بروتوكولات حكماء صهيون)، وراحوا ينشرون (الماسونية) ووصل الحال بهم إلىٰ أنهم وضعوا علىٰ ورقة الدولار ـ فئة دولار واحد ـ شعار الماسونية، وهو عبارة عن شكل هرم يعلوه عين آدمي، وعلى الجانب الأيمن لظهر الدولار توجد النجمة السداسية نجمة داود الشهيرة مكونة من (١٣) نجمة هم الأسباط الاثنا عشر أبناء يعقوب عليه السلام، بالإضافة إلىٰ السبط الجديد وهم الخزر الذين هم يهود العصر الحديث الذين يحكمون إسرائيل اليوم!.

إذن: هلاك أمريكا وإسرائيل أمرٌ حتميٌّ: ومن الأدلة علىٰ ذلك حديث القرآن الكريم عن قوم عاد الأولىٰ، ثم تركيزه علىٰ عاد الثانية وهي التي تشبه الأولىٰ بالاستكبار في الأرض، وتكذيبهم رسل الله، وجحودهم بآيات الله ونعمه، وبادعائهم أنهم القوة الوحيدة في العالم. ففي سورة فصلت يقول تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٥ ـ ١٦].

وفي سورة هود يقول سبحانه: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود: ٥٩].

وما دمنا نعتقد أن لله جنوداً لا يعلمها إلا هو، وهي كثيرة، كالطوفان والملائكة وغيرها، وبالتالي فالذي دمَّر الأمم الظالمة السابقة هو سبحانه الذي يستطيع أن يزيل أمريكا وإسرائيل ومن لفّ لفّهم بأمثال ذلك، أي بآية من آياته سبحانه، فأمره بين الكاف

والنون ، ولا يظنن أحدٌ أن أمريكا اليوم علىٰ جبروتها وعلىٰ ما تملك من ترسانات سلاح ، أنها الربّ في هـٰذا الكون! .

فقد مرّ علىٰ هـٰذه الأرض من هو أقوىٰ من أمريكا وإسرائيل، مصداق ذلك قوله سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ ﴾ [الروم: ٩].

ومثل ذلك في ما يسمىٰ دولة إسرائيل؛ فقد نقضوا العهود والمواثيق ، وكذّبوا الرسل وقتلوا الأنبياء ، وادّعوا الباطل ، وافتروا علىٰ الله سبحانه ، واستغرقوا في المال الحرام الناتج عن الربا وغسيل الأموال وبيوتات الدعارة و . . . ! .

ولذلك لا بدّ أن نهاية إفسادهم قد اقتربت ، قال تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴾ [الإسراء: ٥].

وقد يكون الوعد الأول الذي حدث فيه الدمار الأول أيام (بختنصر البابلي)، وقد يكون زمن الرسول ﷺ، حيث أجلاهم من الجزيرة العربية، وأما الدمار الثاني فهو الذي قال الله عنه: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَـٰكُم بِأَمْوَ‌ٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَـٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ [الإسراء: ٦].

أي: سيأتي يوم تعلو فيه إسرائيل ، وتصبح أكثر مالاً وجنوداً ، وأكثر هيبة ، وستصبح القوة الضاربة المرعبة ، لكن ذلك الاستعلاء لن يطول بإذن الله ، قال تعالىٰ: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٧].

ولعلنا بإذن الله نشهد سقوط دول الظلم والجور ، وعلىٰ رأسهم الكيان الصهيوني الغاشم، وذلك علىٰ يد ﴿ عِبَادًا لَّنَآ ﴾ سواء كانوا جماعة حماس أو الجهاد الإسلامي أو حزب الله ، المهم أنهم جماعة

الأيدي المتوضئة ، والجباه الساجدة ، وجماعة صيحات: الله أكبر.. حي علىٰ الجهاد.. يا رياح الجنة هبّي.. غداً نلقىٰ الأحبة محمداً وحزبه.

وما ذلك علىٰ الله بعزيز ، وصدق الله سبحانه عندما قال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥ ـ ١٠٧].

* * *

الخاتمة

أحسن الله ختامنا أجمعين

في أواخر سورة يوسف ، وبعد الانتهاء من قصة يوسف عليه السلام ، توجّه الخطاب الإلٰهي إلىٰ خاتم الأنبياء محمد ﷺ ، ليرسم قانون إهلاك الأمم ، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ ﴾ [يوسف: ١٠٩ ـ ١١١].

ولذلك فالجميع مطالبون أن يسيروا في الأرض ، ويتوقّفوا عند آثار السابقين ، ليعتبروا بما حدث لهم ، ويتذكروا أن القانون الإلٰهي الذي طُبّق عليهم قابلٌ للتطبيق علىٰ أي أمة تسير علىٰ ما كان عليه أولئكم الناس ، حيث العصيان والتكذيب والفسق والفجور! وما أكثر العبر في هٰذا الكون! . . لكن ـ وللأسف ـ ما أقل المعتبرين! .

مثال آخر: في أوائل سورة الحشر حديث عن اليهود الذين كانوا يقطنون المدينة المنورة ، لكن لما تآمروا علىٰ المسلمين ، وطغوا في البلاد ، وأكثروا فيها الفساد ، عند ذلك طُردوا إلىٰ غير رجعة ، المهم أن تلكم الحكايات ليست من باب التسلية ، إنما هي للعبر والاتعاظ ، قال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ

مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢].

هـٰذا هو الهدف ـ الاعتبار ـ من قراءة التاريخ ، ومن زيارة الأماكن الأثرية ، ومن الحديث عما جرىٰ للسابقين:

ولي في فناءِ الخلقِ أكبرُ عبرة لمن كانَ في بحرِ الحقيقةِ راقي
شخوصٌ وأشكالٌ تمرّ وتنقضي فتفنىٰ جميعاً والمهيمنُ باقي

الكون مليء بالآثار.. والآثار فيها المواعظ والعبر ، لذا إذا زرت قصراً قديماً ووقفت عند عجائبه ، تذكّر أين من شاد؟.. وأين من حكم؟.. وأين من ظلم؟ ثم عُد إلىٰ نفسك ترىٰ العبر.. وتسمع الهمسة الروحية.. وعندئذٍ ردّد:

لا تركننَّ إلىٰ القصورِ الفاخره واذكرْ عظامَك حين تمسي ناخِره
وإذا رأيت زخارفَ الدنيا فقلْ يا ربِّ إنَّ العيشَ عيشُ الآخِره

وإذا قيل لك: فلان يتكبّر علىٰ عباد الله بماله ، فقل: ولكن أين مال هـٰذا من مال قارون؟! لقد أطغاه المال فانقلب من رجل مؤمن إلىٰ كافر متكبر ، فخسف الله به وبالمال ، وعند ذلك أصْغي إلىٰ ما في داخلك ، تسمع صوت الواعظ:

يا نفسُ توبي فإنَّ الموتَ قد حانا واعصي الهوىٰ فالهوىٰ ما زالَ فتّانا
يا نفسُ مالي وللأموال أكنزُها خلفي وأخرجُ من دنياي عُريانا

وإذا قيل لك: لكن هـٰذا الكلام ينطبق علىٰ الأمم السابقة ، أما اليوم فهناك القطبية الواحدة ، وفي ظلال العولمة ، فأمريكا تعربد في العالم ، وتتّهم من تشاء بالإرهاب ، وتفرض عقوبات علىٰ من تشاء و...!!.

الجواب في القرآن الخالد: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟

وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٣ ـ ١٤].

وهـٰذا ما يشهد به التاريخ: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [النحل: ٢٦ ـ ٢٧].

لكن نحن يهمّنا كيف الخلاص من الظلم والاستكبار؟.

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [المرسلات: ١٦ ـ ١٨].

لكن متىٰ يكون ذلك؟.

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١].

نسأل الله تعالىٰ أن يجعلنا نعتبر بغيرنا، لا أن يجعلنا عبرة لغيرنا، وأن يجعل خاتمة أعمالنا القول الثابت في الحياة الدنيا.

وصلى الله على خاتم الأنبياء محمد، وعلىٰ آله الطيبين الطاهرين، وصحابته الغرّ الميامين، وعلىٰ من سار علىٰ الدرب إلىٰ يوم الدين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

* * *

المصادر والمراجع

- **تفسير القرآن العظيم**، الحافظ ابن كثير، ط ٢ ١٩٦٦م، دار الأندلس، بيروت.
- **الجامع لأحكام القرآن**، الإمام القرطبي، ط ١ ١٩٩٥م، دار الفكر، بيروت.
- **شرح صحيح مسلم**، الإمام النووي، ط ٣ (د.ت)، دار القلم، دمشق.
- **الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ**، القاضي عياض، مكتبة الفارابي، دمشق (د.ت).
- **قصص الأنبياء**، الحافظ ابن كثير، ط ١ ١٩٩٢م، دار ابن كثير، دمشق.
- **تفسير الشعراوي**، الشيخ محمد متولي شعراوي، ط ١ أخبار اليوم، مصر (د.ت).
- **سيرة سيد الأنام**، الدكتور محمد عمر الحاجي، ط ١ ١٩٩٨م، دار الحافظ، دمشق.
- **الإصابة في تمييز الصحابة**، الحافظ ابن حجر العسقلاني، ط ١ ١٩٩٣م، دار الجيل، بيروت.
- **البداية والنهاية**، الحافظ ابن كثير، دار الكتب العلمية، بيروت (د.ت).

- **المحاور الخمسة للقرآن الكريم**، الشيخ محمد الغزالي، دار الصحوة، الجزائر (د.ت).
- **زاد المعاد في هدي خير العباد**، الحافظ ابن قيم الجوزية، ط ١ ١٩٧٩ م، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- **قصة الحضارة**، ول وإيريل دي ورانت، دار الجيل، بيروت (د.ت).
- **فخ العولمة**، هانس بيتر مارتين، ترجمة عدنان علي، ط ١ ١٩٩٨ م، سلسلة عالم المعرفة، الكويت.
- **تاريخ الأمم والملوك**، الإمام الطبري، دار سويدان، بيروت (د.ت).
- **الطبقات الكبرى**، الإمام ابن سعد، ط ١ ١٩٩٠م، دار الكتب العلمية، بيروت.
- **تفكر ساعة**، الدكتور محمد عمر الحاجي، ط ١ ١٩٩٦م، دار النور، دمشق.
- **أسباب هلاك الأمم والحضارات في سورة الأعراف**، عبد الحميد طهماز، ط ١ ١٩٩٢م، دار القلم، بيروت.
- **أثر المعاصي والذنوب في الأفراد والشعوب**، السيد عسكر، ط ١ ١٩٩٢م، (د.م).
- **أسباب هلاك الأمم وسنة الله في القوم المجرمين**، عبد الله التليدي، ط ١ ١٩٨٦م، دار البشائر الإسلامية، بيروت.

* * *

المحتوى

تمهيد ٥

الباب الأول
ما قبل الإهلاك

الفصل الأول: الإنذار قبل الإهلاك ١١
أولاً: من سورة الشعراء ١٢
ثانياً: من سورة القصص ١٦
الفصل الثاني: الإهلاك تدخل إلـهي ١٩
أولاً: من سورة إبراهيم ١٩
ثانياً: من سورة الأنفال ٢٢

الباب الثاني
أسباب الإهلاك

الفصل الأول: تكذيب الرسل ٣١
المطلب الأول: إطلالة على حياة الأنبياء والرسل عليهم السلام ٣١
ـ أهم وظائف الرسول ومهماته ٣٢
المطلب الثاني: نماذج من تكذيب الناس للرسل ٣٣
١ ـ من سورة القصص ٣٣

٢ ـ من سورة هود عليه السلام ٣٦
الفصل الثاني: الاستهانة بالوعيد ٤١
أولاً: قصة ثمود مع النبي صالح عليه السلام ٤١
ثانياً: قصة بني إسرائيل مع نبي الله موسى عليه السلام ٤٣
ثالثاً: مع نبي الله شعيب عليه السلام ٤٣
الفصل الثالث: الانغماس في الترف ٤٧
أولاً: قارون وعاد وسبأ وعاقبة ترفهم ٤٧
ثانياً: الترف في دولتي فارس والروم ٤٩
ثالثاً: الترف في دولة الأندلس الإسلامية ٥١
رابعاً: الترف في دولة بني العباس ٥٢
خامساً: عهود الترف في العالم العربي ٥٤
سادساً: الترف في الدول الغربية ٥٥
سابعاً: نموذج من الترف الحديث ٥٦
ثامناً: حديث ابن خلدون عن الترف ٥٨
تاسعاً: آثار الترف وصوره ٥٩
الفصل الرابع: انتشار الفساد وكثرة المفسدين ٦٥
أولاً: معنى الفساد ٦٥
ثانياً: أهم أشكال الفساد في العالم الإسلامي ٦٦
ثالثاً: الفساد أحد أسباب هلاك الأمم ٦٧
رابعاً: أدوات الفساد ٧٠
خامساً: الآثار الوخيمة للفساد ٧٠
سادساً: الحلول المقترحة لمحاربة الفساد ٧٠

الباب الثالث

ما أكثر العبر.. وما أقل المعتبرين!

الفصل الأول: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ٧٣

أولاً: قصة الطاغية فرعون ٧٣

ثانياً: قارون طاغية المال ٧٤

ثالثاً: أصحاب القرية ٧٥

رابعاً: ترك بقايا وآثار المهلكين للعبرة ٧٥

الفصل الثاني: ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ﴾ ٧٧

أولاً: أسباب النكبات ٧٧

ثانياً: دور صلاح الدين في الأمة ٧٨

الفصل الثالث: ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ٨١

أولاً: عاقبة المجرمين (انهيار الاتحاد السوفياتي) ٨١

ثانياً: سيكون مصير أمريكا وإسرائيل الهلاك ٨٢

- **الخاتمة** ٨٧
- **المصادر والمراجع** ٩١
- **المحتوى** ٩٣

* * *

هـذا الكـتاب

لما خلق الله الخلق وأمدَّهم بالعقل والمعرفة والنعم ، شرفهم بحمل أمانة الدين والأخلاق وكانت هي عين التكريم والرفعة. وقد كان من هؤلاء من أدى الأمانة ونصح لله ولخلقه فكانت عاقبته الحسنى في الدنيا والمنزلة العالية في الجنة.

وأما من خان أمانـة الله ومَـرَدَ عليها واتخذها وراءه فقد قادته إلى الهلاك والخسران في الدنيا والآخرة.

وهذا الكتاب «هلاك الأمم» رصد لهذه الظاهرة؛ ظاهرة التمرد على أمر الله عبر العصور، وما كان من أصحابها وما جرَّت عليهم من الويل والثبور والهلاك.

وما ذلك إلا لنكون على بينة من أمرنا ولنتخذ طريقاً مع الصالحين يبتعد بنا عن مهاوي الخزي والشنار وعاقبة السوء.